الاستشراق الروسي
نشأته ومراحله التاريخية

سُهَيل فَرَح

إن العلاقة الثقافية بين الشرق والغرب كانت وما زالت أحد أهم المواضيع التي يدور حولها حوار فكري وصراع أيديولوجي لم يحسم حتى الآن بسبب وجود ستريوتيبات عديدة عند الغربيين والشرقيين كل منهم للآخر، ونشأت هذه الستريوتيبات كنتيجة للصراع الاقتصادي والثقافي بين الاتجاه البراغماتي الضيق النزعة وبين الاتجاه الانساني الذي لا يرى فرقاً بين شرقي وغربي إلاّ بما يعمل كل منهما ويسهم في إغناء المعالم المادية والروحية للانسان أينما كان بصرف النظر عن انتماءاته القومية والدينية. فالصراع بين الغرب والشرق أخذ في كل مرحلة من المراحل شكلاً ظاهرياً يكمن مضمونه في الصراع بين القوى المتناحرة من أجل سيادة مفاهيمها الدينية والدنيوية. وفي كل مرحلة تاريخية كانت تقود هذه الأمة أو هذا الشعب الحضارة الدولية، كانت تحاول أن تملي على الآخرين نمط تفكيرها ونمط حياتها بشكل عام. هكذا كان منذ عصر الاسكندر المقدوني وما زال حتى عصر ريغان.

مع بروز الحضارة اليونانية التي شكّلت الامتداد الطبيعي للحضارات الشرق ـ أوسطية، التي تأثر بها أرسطو كثيراً، كان يعتبر الفيلسوف الاغريقي بأن أوروبا الباردة، باستثناء اليونان، بحكم طبيعتها الخارجية غير قادرة على التطور، ذلك حسب رأيه، لأن العقل الاوروبي خامل غير كفوء لبناء مجتمع متحضر. وكان يرى المقياس والقدرة بشعوب الشرق الاوسط التي انتجت حضارات عريقة، فالصراع الذي حدده المفكرون آنذاك هو صراع جغرافي بين الشرق المتنوِّر الديناميكي والغرب البارد الجاحد. وبعدئذٍ ـ ومع حلول القرون الوسطى، ومع سيادة الايديولوجية الميتولوجية الدينية على كل من الغرب والشرق ـ أخذ الصراع شكلاً دينياً حرّكته عقدة النقص الاوروبية ضد الحضارة العربية ـ الاسلامية التي أعطت للانسانية نموذجاً متقدماً ترك انعكاساته على المسيرة الحضارية العالمية كلها. بعدئذٍ ـ ومع أفول نجم الحضارة العربية ـ الاسلامية ودخول أوروبا المرحلة الرأسمالية ومن ثم الامبريالية، ومع سيطرتها على المفاصل الأساسية للاقتصاد العالمي، أفرزت تراثاً ثقافياً ترك

وما زال يترك آثاراً إيجابية وسلبية، أحد أهم تجلياته اللاإنسانية هو إفرازه للأفكار العنصرية التي على أساسها ارتكز الفكر الاستعماري الغربي. وبهذا، فإن الصراع أخذ يرتدي طابعاً عنصرياً، بين ما أسماه الفكر الاستشراقي المركزي الاوروبي بـ «رقي الغربي» وبـ «دونية الشرقي».

في كل المراحل، كان هناك خيط واحد يجمع بين العصبويين الغربيين والشرقيين، هو الانطوائية الاقليمية والدينية والقومية ومحاولة إقحام نمط تفكير كل منهم على الآخر؛ ورافق هذه المراحل خطٌ آخر - وإن كان ضعيفاً - هو الانفتاح الانساني والخلاَّق؛ وأخذ كل ما هو إيجابي من الحضارات الأخرى لإغناء وتطوير معالم الشخصية الثقافية القومية لهذه الأمة أو تلك.

ولم تشذ روسيا القيصرية عن هذا الخط العام. فلقد نشأت وتطورت في هذا المناخ الثقافي الدولي، ومرَّت بمراحل متنوعة، كل مرحلة كانت تتميَّز بخصائص معيَّنة يحددها المناخ السياسي والفكري والعلمي الذي كان يطبع هذا العصر أو ذاك. ومع نشوء حركة الاستشراق بها التي تميّزت بخصائص كثيرة عن المدرسة الاستشراقية الاوروبية القريبة، تكون العلاقات الثقافية الروسية - العربية (الشرقية) قد دخلت مرحلة جديدة، كان لها دور هام في تكوين الشخصية الثقافية الروسية.

تخلَّل القرون الأولى من بداية تكوُّن الشخصية القومية الروسية جداً من المشاكل الثقافية والدينية. فلقد كانت روسيا بين القرن التاسع والقرن الثامن عشر تبحث عن شخصيتها الثقافية القومية الخاصة بها. فانفتحت روسيا الكيفية منذ البداية على أوروبا الغربية وبيزنطة والعالم الاسلامي معاً. هذا وإن حاولت روسيا الكيفية في عام (٦٤٣) أن تقف مع امبراطورية الخز ضد الخليفة الاسلامي. إلاَّ أنها وجدت لغة مشتركة في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل النصف الأول من القرن العاشر مع الخلفاء، من جرَّاء وقوفهم ضد الامبراطورية البيزنطية. ولقد أشار بهذا الصدد المؤرخ الروسي **سافاروف**: «ليس من المستغرب القول بأن هجوم الروس على بيزنطة مهَّد السبيل لعلاقة طيِّبة مع العرب، لأنهم كانوا ينوون في تلك الفترة شن هجوم عسكري واسع على الامبراطورية»[١].

بيد أن تطوُّر العلاقات الروسية الاوروبية حال دون توجُّه الروس نحو الخلافة العربية، فلقد بدأوا يتجهون نحو اليونان وبيزنطة. وتعاون الروس والبلغار والأرمن في عام (٩٥٤) مع حكام القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية، ضد الأمير السوري سيف الدولة. وتبع ذلك مشاركة روسيا وإن كانت طفيفة في الحملات الصليبية ضد الشرق الاسلامي[٢].

وبهذا بدأت روسيا تضع قدمها بالتدريج في أوروبا الغربية، مبتعدة عن التأثير بالحضارة الشرقية -

الاسلامية . بيد أنها لم تحسم أمرها نهائياً حتى أواخر القرن التاسع عشر، وهذا ما يؤكد عليه المؤرخ الروسي **شمورلا** « فإلى جانب التأثير الحضاري الاوروبي الغربي على روسيا ، كان هناك خطّ مواز ثقافياً ، ترك آثاره بدوره عليها ، وهو الخط الممثَّل بالتأثير التاريخي الثقافي الآسيوي . فرغم أن هذين الخطين كانا كل منهما ينصب العداء للآخر، فإن روسيا كانت تتأرجح بينهما وتتأثر سلباً وإيجاباً بهما »[٣] .

وهذه المسألة ما زالت تثير نقاشاً واسعاً بين المؤرخين والمفكرين السوفيات . فالشاعر الكازاخي المعروف **سليمانوف** يؤكد على الدور المميَّز الذي لعبته الآداب الاسيوية الشرقية على تكوُّن الشخصية الثقافية الروسية ، رغم رفض أمرائها القدامى لنمط الحياة الشرقية[٤] ، ولا يوافقه الرأي الناقد السوفياتي المشهور أيضاً **ليخاتشوف،** الذي يعتبر بأن الثقافة الآسيوية الشرقية لم تترك أيّ أثر ملحوظ على الثقافة الروسية . فلقد كانت أنظارها متجهة نحو الثقافة الاوروبية الغربية[٥] .

إن الانحياز لتأثير هذه الثقافة أو تلك، له وجود في ذهن انتلجنسيا كل شعب من الشعوب، بما فيه شعوبنا العربية ، وإن أخذ بعض الخصائص المميزة في كل بلد . إن أية وجهة نظر مغرقة في عصبويتها لهذه الثقافة أو تلك، تعكس التناول غير الموضوعي لتاريخ الثقافات في العالم . فلكي يؤكد أي شعب شخصيته الثقافية ، عليه أن يعكس الحقائق التاريخية كما هي ويعطيها حجمها الطبيعي ، فلا يختلف مثقفان متنوران في عصرنا على أنه لا يوجد لا في التاريخ القديم للشعوب ولا في التاريخ المعاصر ثقافة خاصة فقط بهذا الشعب أو ذاك . فالتاريخ الانساني شهد ويشهد تفاعلاً دائماً بين الثقافات المتنوعة . فإذا أفرزت هذه المرحلة التاريخية أو تلك هذه الثقافة المعينة إلى الواجهة ، فهذا يعني أن هناك عوامل تاريخية وقومية خاصة أدت إلى الوصول إلى نقطة القمة . فمنطق حركة تطور الحضارات يؤدي بهذه « الحضارة القمة » فيما بعد ، إلى الخمول والهبوط لتبرز مكانها حضارة أخرى تتأثر بما قبلها وتتقدم بحياة البشر للأمام . وبهذه الفكرة لا « تُكتشف أميركا » كما يقول المثل، فتلك حقيقة علمية مكتوبة . غير أن الذي يحول دون تفاعل حضاري خلاَّق بين الثقافات هم أولئك الذين تحرّكهم النزعة الانطوائية المصلحية ذات البعد البراغماتي ، إذا كانوا ممثلين في هرم أيّ سلطة ، وأولئك الآخرين الذين ينتمون إلى شعوب وأمم ضعيفة ، الذين يجدون متنفساً لعقدة النقص الحضارية عندهم بشحن عقلية شعوبهم ضد ثقافة الحضارة الأرقى بشقيها الايجابي الانساني والسلبي الانعزالي .

فالذي يهمنا ، نحن العرب ، هو كشف ذلك الجانب الانساني المشع في حضارتنا ، والتعرُّف على ما هو انساني في الحضارات الأخرى ، وكشف الجوانب السلبية الأخرى التي أدَّت إلى تكريس العديد من الستريوتيبات عن نمط حياة وسلوكية العربي في التاريخ والحاضر . ولكون الحضارة العربية ـ الاسلامية شكَّلت إحدى النقاط المضيئة في تاريخ شعوبنا ، فهي ملك في أبعادها الايجابية الانسانية لكل الشعوب والأمم ، لأنها دخلت في التاريخ

الثقافي العام للبشرية . ولكون هذه الحضارة شكّلت في القرون الوسطى قوة مثيرة « استفزّت » مشاعر العصبويين المسيحيين في أوروبا الغربية ؛ وأخذ يُنظر إلى الشرق الاسلامي نظرة عدائية . انتقلت هذه النزعة اللاإنسانية إلى الروس أيضاً . بيد أن هؤلاء تميّزوا عن الغربيين بموقف ليبرالي مميّز من الاسلام، ذلك لأن امبراطوريتهم التي وصلت إلى آسيا الوسطى كانت مضطرة في حقيقة الأمر أن تأخذ هذا الموقف، بحكم عدم تبلور الشخصية القومية الثقافية الروسية ، فلقد تأثرت بطبيعة ثقافة شعوب آسيا الوسطى التي قضت قروناً عديدة عصراً ذهبياً من الازدهار الثقافي في ظل حكم الخلافة العربية ـ الاسلامية . لذا ، وانطلاقاً من هذه الحيثيات التاريخية ، نميل إلى صوابية وجهة نظر الشاعر السوفياتي سليمانوف . ونؤكد في الوقت نفسه على أن روسيا قد تأثرت أكثر بالثقافة الاغريقية والبيزنطية ، وهذا ما تثبته حقيقة تاريخية أخرى وهو تبنيها للاورثوذكسية كدين للدولة ، وتأثرها بالثقافة اليونانية قد جعل وجهها يميل أكثر إلى الغرب مما هو إلى الشرق .



في هذه الدراسة ، سنحاول استقراء حركة الاستشراق الروسية أو بمعنى أدق حركة الاستعراب الروسية ، ونسلّط الأضواء على دور أهم رموزها في التأثير على كل من الاتجاهين، الشرقي ـ الآسيوي والغربي ـ الاوروبي ، اللذين ساهما في تكوين الشخصية الثقافية الروسية . كما سنتوقف حول موضوع ايصال التراث الثقافي العربي إلى روسيا .

إن اهتمام الروس بالعرب يرجع إلى بداية الرحلات التجارية والبعثات الدينية الاورثوذوكسية إلى الأماكن المقدسة في فلسطين، فالعلاقات التجارية كانت تتم بين تجار المشرق العربي ، وتحديداً تجار بغداد ، وتجار شعوب آسيا الوسطى لتمتد إلى السوق الكيفية الروسية[٦] .

إن انطباعات التجار والمؤمنين الاورثوذوكس عن العالم العربي تشكِّل النواة الاولى لاهتمام الروس بالثقافة الشرقية العربية ؛ فالكتاب والمخطوطة العربيين بشكل عام ، لم يصلا إلى العقل الاستشراقي الروسي إلاّ في مرحلة لاحقة ، مما أدّى في بداية الأمر إلى نشوء الكثير من الستريوتيبات والأساطير عن العرب شوّهت جوهر حضارة شعوب الشرق الأوسط . بيد أن تطور وتنوُّع العلاقات التجارية والثقافية بين الشعوب العربية والشرق أوسطية وشعوب البلقان أدّى إلى إعطاء صورة أوضح عن العرب . ويمكن القول بأن المواد التي تراكمت عبر التاريخ عن العرب وصلت إلى روسيا عبر المصادر التالية :

١ ـ الانطباعات الشفهية للتجار والمرسلين الاورثوذوكس والكلمات العربية التي دخلت اللغة الروسية عبرهم ، وزيارة العلماء والمسيحيين العرب لروسيا .

٢ ـ الاشعاع الحضاري العربي ـ الاسلامي وبالذات الاسلام الذي اعتنقته شعوب آسيا الوسطى، والذي شكَّل قفزة نوعية في وعيها لكافة القضايا الدينية والدنيوية.

٣ ـ المخطوطات العربية من علم وشعر وقصة ونوادر وروايات وفلسفة وغيرها.

أغلب الظن أن الكلمات الأصلية العربية التي دخلت اللغة الروسية، كانت في البداية قليلة مثل: [الماس، فيروز، الله، بازار، فلفل، سلطان، خليفة، مسجد وغيرها . . .]، وظهرت هذه الكلمات في القواميس اللغوية التي تم إعدادها في سلسلة تحت عنوان: «الحروف الابجدية الاجنبية» في القرن السادس عشر[٧]. بيد أن الكثير من الكلمات العربية المحوَّرة التي أدخلت إلى لغات شعوب التتر والكازاك واوزبكستان وطاجكستان واذربيجان وتركمانيا والتركية، تم نقلها وإدخالها في القاموس اللغوي الروسي مثل: «أرباط» (وهي محطة مترو ومطعم على ساحة كالينين في موسكو الآن)، أو «رافل» التي تقابل في العربية بكلمة «رامل»، أو «صندوك» (صندوق بالعربية)، و«فلاخ» (فلاح)، «غشر» (عشر)، «خاراج» (الخراج)، «شريعات» (شريعة)، «خالت» (حالة) وغيرها . . . إلى جانب أسماء العلم الكثيرة جداً ذات الأصل العربي[٨]. ولقد أدخلت الاصطلاحات الطبية والكيميائية والفلكية والأدبية ذات الأصل العربي إلى اللغة العلمية الروسية في أواخر القرن الثامن عشر، عن طريق المستشرقين الغربيين والأدباء والسوّاح، وخصوصاً عن طريق الاسبان والبرتغاليين. كما أن زيارة عدد من التجار ورجالات العلم العرب في بداية القرن الثالث عشر، ترك تأثيراً ملحوظاً. منها على سبيل المثال لا الحصر: مكوث الطبيب العربي **بطرس سيريان** في إمارة كييف الموسكوفية، حيث اشتهر آنذاك بمعالجته لرجالات الامارة ونشاطه العلمي الذي أدَّى إلى دخول العديد من الكلمات العربية التي لها علاقة بالطب والتجارة الى اللغتين الروسية والاوكرانية القديمتين[٩].

كما أن الكثيرين من الروس من زوار الأماكن المقدسة في فلسطين، كانوا ـ عندما يعودون إلى بلادهم ـ كثيراً ما يروجون لنمط الحياة العربية المتطورة في كل من فلسطين ولبنان وسورية، ونقلوا العديد من التقاليد الفولكلورية الشعبية التي تناقلتها الألسن. ولعلَّ أهمها، الذي لم يدوّن إلاَّ في فترة لاحقة، «التراث الشعبي»، الذي تركه الرحالة الروسي المشهور **أغودين دانيال**، الذي زار القدس أكثر من مرة بين أعوام (١١٠٦ ـ ١١١٣)، وبنى صداقات واسعة مع رجالات الدين المسيحي في فلسطين. ورحلات التاجر المعروف آنذاك، **أفانيسيا بنكتين**، الذي عاش حوالى (٢٥) سنة متنقلاً بين الهند والعالم العربي وكييف وموسكو، والذي بقي من آثاره قصة يروي فيها انطباعاته الجميلة عن مضيق هرمز، ويقال بأن هذه القصة تضمنت الكثير من الكلمات العربية والفارسية[١٠].

ولقد بقيت مجموعة قصص للضابط الروسي **فيودور خبن**، الذي مكث حوالى عشر سنوات بين أعوام (١٣٧٠ - ١٣٨٠) في كل من مصر وسورية وفلسطين وبعض بلدان المغرب العربي، يعكس في تلك القصص انطباعاته عن جمال هذه البلدان وعن وضعها العسكري، فيصف شوارع القاهرة الضيِّقة والمزيَّنة بالخضار، كما أنه يتوقَّف عند الفن العمراني لمدن دمشق ويافا وجدة والقاهرة والاسكندرية وطرابلس الغرب وتونس[١١].

إن هؤلاء التجار والسواح والعسكريين ومدوني الأسفار أغنوا اللغة والثقافة الروسيتين آنذاك بكلمات ومفردات وحكم وأمثال، ما زالت ماثلة حتى الآن في الثقافة السوفياتية المعاصرة. وهذه لم تصب في حقيقة الأمر بأية تشويهات تذكر، على خلاف الأثر الذي تركه البيزنطيون والاغريق في روسيا عن الثقافة العربية ـ الاسلامية. فلقد أوصل هؤلاء إلى روسيا كل ما هو سلبي في الحضارة الاسلامية، كالاعتراف في التصوُّف والمثالية؛ ووصلت صورة مشوهة عن نبي الاسلام محمد، وعن القرآن الكريم أيضاً. فمعظم هذه «الآراء المشوّهة» لم تنقل في بداية الأمر بواسطة الكتب والمخطوطات الاوروبية والعربية، بل إن معظمها تناقلته الألسن ومن ثم سجل في كتب لاتينية. ولقد كان لموقف الأمير **فلاديمير الروسي** الذي لعب دوراً رئيسياً في تأسيس دولة روسيا الموسكوفية، كان لموقفه من الإسلام أهمية خاصة تركت انعكاساتها على مجمل التفكير الروسي من هذه الديانة. ويُحكى عن هذا الأمير بأنه أرسل ممثليه إلى كافة أنحاء العالم، لكي يختار ديانة من الديانات السماوية لشعبه. ولقد عرضوا عليه الديانات التوحيدية الثلاث اليهودية والاسلام والمسيحية، فلم يتوقّف عند الأولى، وطلب من ممثليه أن يدرسوا الثانية فاعتمدوا على العديد من الأدبيات الاوروبية، وأهمها دراسة المؤرخ اليوناني **غيورغيا أمارتو** حول «تاريخ العالم» الذي تكلم بشكل مقتضب عن الاسلام، وعن «بوخمير» (هكذا كان يطلق على النبي محمد في الادبيات السلافية واللاتينية في القرن الحادي عشر). فهذا الكتاب لم يتوقف عند الشريعة الاسلامية، وأفرد فصلاً كاملاً للعلاقات البيزنطية العربية[١٢].

كما أنه اعتمد على معلومات كانت تتناقض مع نظام المأكل والمشرب وعلاقات الزواج في روسيا. وكان يُعرف عن الأمير فلاديمير حبه لأكل لحم الخنزير ولشرب الخمور ولاختيار زوجة واحدة، وهذا ما لا يتفق مع التصوُّر الذي لقنه إياه أنصاره عن العادات الاسلامية، إذ يحكى عنه بأنه هو صاحب القول المشهور: «لا معنى لحياة الروس بدون ارتشاف رحيق الكؤوس» وكان هذا الأمير يعتقد ـ اعتماداً على أقوال الاغريق ـ بأن كارثة قد تصيب روسيا ككارثة سدوم وعمورة إذا تجرأ الأمير ودان بالاسلام[١٣].

ظهرت فيما بعد كتابات أخرى عن العرب والاسلام والمسيحية في الشرق. لعل أهمها كتابات المؤرخ اليوناني **مكسيم غريك** الذي عاش معظم حياته في مدينة موسكو بين أعوام (١٥١٨ ـ ١٥٥٩). ففيها كتب عن انطباعاته حول تركيا والاسلام، وأعطى صورة عن الغرب ونمط حياته والديانات المتصارعة في العالم؛ كما

أنه دعا الروس لتحرير تركيا من الطغاة، إذ إنه كان يرى في هذه الدولة نموذجاً للاستبداد الاسلامي ضد المسيحيين(١٤).

ولقد كانت هذه الكتابات تعكس في الواقع وجهة النظر الرسمية الروسية حول الشرق والاسلام. الأمر الذي جعلها تأخذ طابعاً عدائياً ليس ضد الاسلام بالذات، بل توجهها لتعبئة القراء الروس ضد تركيا، بيد أن اللغة المستعملة كانت ترتدي طابعاً ميثولوجياً دينياً، وليس هذا غريباً عن تلك الفترة التي كانت تهيمن عليها الايديولوجيا اللاهوتية الاورثوذوكسية. فرغم بروز التيارات العقلانية والمادية في أوروبا الغربية في القرن السادس عشر، كانت أوروبا الشرقية، وروسيا بالذات، تبحث عن مكان لها وسط الدول الكبرى يميِّزها عنها بديانة وشخصية قومية مستقلتين؛ كما أن الصراع ضد تركيا في ذلك الوقت كان صراعاً على النفوذ الاقتصادي والسياسي على البلقان. ولقد تم استغلال المسيحية من قبل روسيا واستغلال الاسلام من قبل تركيا، كغطاء أيديولوجي لكي تؤطر كل دولة حولها أوسع الفئات الشعبية، التي كانت ترزح تحت نير التفكير اللاهوتي المثالي. ولقد كان مدوِّنو التاريخ والكتّاب والأدباء يمثلون أبواق الحكم ولسان حاله وينفخون في نار العصبوية والقومية. ومن هنا، نشأ لدى الروس تصوُّر مشوَّه عن الاسلام، ونسجت أساطير وخرافات كثيرة عن النبي محمد. بيد أن تلك الفترة، لم تحل دون إصدار كتابات فيها شيء من الموضوعية عن الاسلام وأهدافه. لعلَّ أبرزها كتابات **يورلاي كريجانيتشر**، الذي عاش متنقلاً بين تركيا ومقاطعة التشيك وروسيا. فلقد حاول هذا الكاتب إعطاء صورة موضوعية عن النبي محمد، ووصفه بأنه كان يطمح من وراء أفكاره الغنية بناء دولة واحدة قوية تدين بالاسلام. ودعا يورلاي كريجانيتشر إلى تعايش أخوي بين الديانات التوحيدية، تبعه في هذا الخط كلٌ من المؤرخ اللاتفي **بيغتس** والايركوتي **فيودسكي**، اللذان دعيا إلى حرية الايمان بالاسلام والحق لمتّبعيه بممارسة شعائرهم بشكل مستقل. كما أنهما أشارا إلى أن كل المؤمنين متساوون أمام الرب(١٥). فبصرف النظر عن الطابع المثالي لتلك الأفكار، إلا أن المجاهرة فيها في تلك الفترة كانت تعتبر دعوة شجاعة تعكس روحاً نقدية ضد العصبويين من أنصار الديانتين.

هذا، ولقد استمرت هذه الكتابات التي يغلب عليها الطابع الديني، والتي عكست وجهة النظر الاورثوذكسية الروسية، متأثرة في ذلك بالحملة الاعلامية الهوجاء التي قام بنشرها الصليبيون عن فلسطين في معظم أنحاء أوروبا. وعلى الرغم من توقُّف الحملات الصليبية على الشرق، ورغم انشداد العقل الاوروبي في عصر النهضة إلى الأفكار العقلانية والعلمانية، فإن كل هذا لم يضعف من هيمنة التفكير اللاهوتي المثالي على الأوروبي، وشحنه بنزعة عصبوية ضد الشرقيين المسلمين. ولذلك فلقد كان أحد أهم الاسلحة الايديولوجية، التي تواصل الاستمرار في استعمالها من قبل كبار رجالات الدين والحكم، هو توظيف انطباعات المرسلين إلى الأماكن

المقدسة في فلسطين ضد قوى مشرقية وهمية، وذلك لصرف أنظار الاوروبيين عن التحوُّلات النوعية في التفكير الايديولوجي والاقتصادي الاوروبي. فكلما تكرَّست التصوُّرات الميثولوجية الدينية في وعي الانسان العادي، كانت عملية التأثير عليه من قبل القيادات الدينية والحكومية قوية، لذلك - وبحكم العلاقة الروحية بين روسيا وأوروبا - فإنها لم تشذ عن قاعدة العداء الاوروبي إلى الشرق الاسلامي، مع لفت النظر بأنها كانت مضطرة، كما قلنا، أن تراعي واقع التركيبة البشرية والدينية لامبراطوريتها في القسم الآسيوي. وكانت مضطرة أيضاً لأن تقف أحياناً غير متحمسة للدعوات الهوجاء الاوروبية الغربية ضد الاسلام، بيد أنها كانت تسمح بنشوء كل الكتابات الصادرة في اللغات الاوروبية في روسيا عن العرب والاسلام. ولعل أهم الكتابات المناهضة للاسلام في القرن السادس عشر، دراسة الكاتب الايطالي **ريكالدوس دي مونتيه كروتسييس** التي حملت العنوان التالي: «Confutatio Ligis Latac Saraccnisaa Maledicto Mahumeton»، وكتابات البولوني الكاثوليكي النزعة **مارتين بالسكي،** التي ترجمت إلى الروسية بين أعوام (١٥٧٨ - ١٥٨٠)، وكتابات اليهودي **بيوتر الفونس**[١٦]، وغيرها... التي أعطت صورة منحازة للغرب حول الصراع، الذي كان يدور بين ممثلي الكنيسة الشرقية وحكام تركيا ومصر، وشوَّهت النظرة الحقيقية حول العقلية العربية الاسلامية.

وفي أواخر القرن السابع عشر، قامت الأوساط العلمية الروسية بترجمة العديد من الكتابات الالمانية والايطالية، أهمها: السلسلة التي صدرت منذ عام (١٦٨٤) تحت عنوان «حكايات عن محمد منذ بداية رسالته وحتى النهاية» فتميَّزت عن غيرها باتجاهها غير المنحاز للعصبوية المسيحية الغربية. والجدير بالذكر أن معظم المواد المترجمة إلى اللغة الروسية لم تكن تشرف عليها هيئة مختصة، فلقد جاء الانتقاء في الترجمة، على حد قول **كراتشكوفسكي،** عشوائياً في محض الصدفة[١٧]. ولعلَّ هذا، كان يعكس رغبة الاوساط العلمية الروسية لمواكبة أوروبا علمياً وحضارياً، بعد أن خطت خطوات ملموسة باتجاه الثقافة الاوروبية والعالمية. بيد أن الثقافة العربية، بكافة تجلياتها، لم تصل إلى روسيا مباشرة من العالم العربي، بل إنها مرَّت في البداية عبر المصفاة الاوروبية الغربية. فجاء معظمها مشوَّهاً بعيداً عن الموضوعية العلمية، هذا من جهة ومن جهة ثانية، لقد أرادت روسيا الاستعانة بوجهة النظر الاوروبية الغربية عن الاسلام، لكي ترتكز على مستندات فكرية توظّفها الاورثوذوكسية المسيحية الفكرية الروسية ضد الدوغمائية الاسلامية التترية.

أمَّا فيما يتعلّق بالأدبيات العربية الأخرى، من علوم وشعر ورواية، فلم تصل هي بدورها عن العربية، بل إنها تُرجمت بدورها عن اللغات اليونانية والالمانية. ومنها على سبيل المثال، كتاب «كليلة ودمنة» الذي تُرجم عن اليونان، والذي كان الاغريق قد أطلقوا عليه تسمية: «ستيفان واهنيلان». وتم نشر كتاب «سر الأسرار» للعالم اليهودي **سحارى،** والذي أشار إليه الاكاديمي **كراتشكوفسكي:** بأن معظم أفكاره، حول أدب الحياة

والعائلة وأسلوب الادارة الحكومية هي نفسها تماماً الموجودة في كتاب « أهل المدينة الفاضلة » للفيلسوف العربي **أبو النصر الفارابي**(١٨). كما أن القارىء الروسي تعرَّف على الكتابات الفلسفية لأبي حامد **الغزالي**، وبالذات كتابه « مقاصد الفلاسفة ». وراجت أفكار الفلكي العربي **ابن التبروجي**، وانجازات الطبيب الفيلسوف **اسحق بن سليمان**. هذا، وإن معظم أسماء الأعلام وعناوين الكلاسيكية الأدبية والعلمية العربية كانت تُنقل إلى الروسية بشكل مشوَّه. وبقيت التسميات تحتفظ بشكلها المغلوط حتى أوائل القرن التاسع عشر الذي شهد نهضة علمية استشراقية كبرى من قبل مستعربين كبار، سنأتي على ذكرهم فيما بعد، ساعدهم في ذلك وصول المخطوطات العربية إلى خزانات المخطوطات في كلٍّ من بطرسبورغ وقازان.

هذا، وخلال تنقيبي في خزانة المخطوطات في معهد الاستشراق السوفياتي في كل من موسكو وطشقند ولينينغراد، كنت أتشوَّق لمعرفة الروسي الأول الذي أجاد اللغة العربية. بيد أنني لم أستطع أن أتعرَّف إلى معلومات تشير إلى أن كل من **كليمنت اليشوف وسيبان تنابشورين**، اللذين كانا يجيدان الفارسية والتركية، كان ينطقان وبصعوبة العربية. بيد أن هناك رواية أخرى، أكدها فيما بعد كراتشكوفسكي، تقول، بأنه أثناء زيارة البطريرك « مكاريوس الحلبي » إلى موسكو في أواسط القرن السابع عشر، أثناء حكم « الكسي ميخائيليوفتش »، كان بصحبته ابن البطرك العربي السوري « بولس الانطاكي »؛ ولقد اقترحوا على بولس أن يبقى في موسكو ليعمل مترجماً في المثلية الاورثوذوكسية. ولست أدري إن كان قد قبل الاقتراح، لأنه ليس هناك من آثار علمية مترجمة له تؤكد أو تنفي صحة الرواية.

هذه هي اللوحة العامة التي يمكننا الوصول إليها من خلال متابعاتنا للأدبيات الروسية عن الشرق، وتحديداً عن الحضارة العربية ـ الاسلامية. مما يدفعنا إلى استنتاج صغير مفاده: أنه حتى أواخر القرن السابع عشر، دخلت اللغة الروسية كلماتٌ عربية وكتاباتٌ أوروبية عن الاسلام وترجماتٌ أخرى أدبية وعلمية، وهي إن كانت قليلة إلاَّ أنها لاقت رواجاً ملحوظاً بين المثقفين والعلماء الروس، وساهمت بدورها بإغناء الثقافة الروسية التي ظلت تفتش عن شخصيتها القومية الثقافية المستقلة.

★★★

يعتبر القيصر **بطرس الأول** أهم الشخصيات الروسية التي لعبت دوراً مميَّزاً في الصعود بروسيا إلى الساحة السياسية الدولية. ولقد كان بالفعل من القياصرة القلائل الذين تمتعوا برؤية شمولية متنورة للسياسة والعلم والثقافة والجيش، وبفضله انتقلت روسيا من المرحلة البربرية والتخلّف إلى مرحلة الانفتاح على العلم والتطوّر والتقدّم الاجتماعي. ولعله، هو وأنصاره، قد ساهموا في دفع روسيا نحو الغرب، حيث تعرّفوا على المعالم الحضارية والعمرانية والعلمية والثقافية. إن طموحات **بطرس الأول** لمعرفة الغرب والشرق على حد سواء، جعلته يفكِّر

في تأسيس مراكز علمية متخصصة في كافة العلوم. ولمّا لم تكن الكوادر العلمية الروسية متوفرة عندئذ، **فلقد** استعان بأوروبا. ومن هنا، نفسّر سبب دعوته للفيلسوف **لايبنتز**، واختياره له مستشاراً في الشؤون العلمية والسياسية والفلسفية في القضايا الاوروبية. **ولايبنتز** هذا، كانت شهرته واسعة في أوروبا في أهم الميادين العلمية، فهو الذي اكتشف في علم الرياضيات حساب التكامل. وكان محامياً بارزاً ومؤرخاً وديبلوماسياً وعالماً في المنطق والفيزياء. ولقد لعب دوراً نشطاً في الحياة العلمية السياسية في معظم العواصم الاوروبية. وكان مقبولاً لدى معظم أمراء أوروبا وملوكها، لأنه حاول التوفيق بين الكاثوليكية والبروتستانتية وحتى الاورثوذوكسية، وقدَّم فلسفته التوفيقية على أساس لا يستطيع أن يقف ضدها أحد. ومن هنا سبب اختيار القيصر الروسي له، ليكون أحد أبرز مستشاريه الذي استفاد منه في رسم الخطة العامة لأكاديمية العلوم الروسية. كما أن للقيصر الروسي اهتماماً خاصاً بالشرق وتراثه، وبالذات الاسلام منه، لأنه كان يرى فيه فلسفة ومنهجاً يسير على ضوئها رجالات الحكم في المناطق الاسلامية. لذا، فلقد عيَّن الأمير الملدافي الأصل، الاختصاصي في قضايا الشرق الاسلامي مستشاراً له في قضايا الشرق. ولقد أدخل **كانتمير** (١٦٧٣ - ١٧٢٣) إلى روسيا أول مطبعة ذات حروف عربية(١٩)، إذ بواسطتها تمكَّن القيصر من طباعة أول بيان روسي موجه إلى المناطق الواقعة تحت السلطنة العثمانية وذلك في (١٣ تموز/يوليو ١٧٢٢). والمستشرق **كانتمير**، كان من أوائل المستشرقين الروس الذين أعطوا صورة موضوعية عن الشرق والاسلام. ففي بحثه المكتوب باللاتينية تحت عنوان « De religion et statu Imperii »(٢٠)، والذي ترجم إلى الروسية **ألينسكي**، وقام المؤلف باعطاء صورة علمية سلَّطت الأضواء على **ظروف النشأة التاريخية لمحمد**، وبعدها يتناول كيف أن الأتراك حاولوا توظيف الاسلام لمآربهم السياسية الخاصة. وكان الهدف الأساسي من وراء نقل هذا الكتاب الى الروسية هو تعريف القيصر الروسي بالاسلام وتركيا بالذات. وبهذا تكون قد فُتحت صفحةٌ جديدةٌ في تاريخ الاستشراق الروسي عنوانها أربعة أهداف:

الأول: تحضير كوادر علمية روسية اختصاصية في الشرق.

الثاني: تأسيس مدارس، وبالتالي معاهد لتعليم اللغات الشرقية ولدراسة الحضارات الشرقية.

الثالث: جمع المخطوطات والمسكوكات والآثار الشرقية في مناطق خاصة.

الرابع: ترجمة الأدبيات الاوروبية عن الشرق، وبداية التحقيق في المخطوطات الشرقية.

وكخطوة أولى، أرسل **بطرس الأول**، أربعة شبان إلى ايران لتعلُّم اللغات الشرقية - الفارسية والتركية والعربية، وذلك بتاريخ (١٤ شباط/فبراير ١٧١٦). ولم يُعرف ماذا كانت نتيجة هذه البعثة العلمية الأولى(٢١). وأمر أيضاً ببناء متحف خاص للاحتفاظ بكافة المخطوطات والآثار العربية، من مسكوكات

ونقوشات عربية على الصخور وبعض الزخارف الأخرى التي تم العثور على بعضها في منطقة الفولغا، ويرجع تاريخها إلى عامي (٦٧٠ و٧٤٣ م)[٢٢]. ولعل الحدث العلمي الأهم في نشاط الهيئات الأكاديمية الروسية في أوائل القرن الثامن عشر، هو ترجمة الدكتور **بيوتر بوستيكوف** للقرآن في عام (١٧١٦) عن الترجمة الفرنسية التي قام بها المستشرق الفرنسي ديوري في عام (١٦٤٧)، ولقد كان عنوان الترجمة الروسية «القرآن ومحمد أو قانون تركيا».

هذا، رغم القرار الذي صدر عن القيصر بطرس الأول بتأسيس قسم خاص في أكاديمية العلوم الروسية، يهتم بدراسة الحضارة العربية الاسلامية وبتهيئة الكوادر العلمية لذلك، فإن هذا القرار لم يتحقّق إلاّ بعد وفاته؛ ولقد بوشر بتعليم العربية في مدارس ثانوية أشرف عليها عدد من المستشرقين اليونانيين والألمان. وشهدت دراسة اللغات الشرقية والسامية وجود تيارين، الأول: كان يهدف إلى إحياء اللغة العبرية واللهجات العربية الأخرى والثاني: أصر على تعليم اللغة العربية كلغة مستقلة، على أن يُعطى لها الأولوية. وكان التيار الأول يهدف، على حد قول كراتشكوفسكي، إلى إحياء الخرافات التوراتية التي كان يروج لها معظم المستشرقين الغربيين. هذا، ولم يبرز في الربع الأول من القرن الثامن عشر إلاّ مستشرقان، كان لهما أثرهما الملحوظ على مسيرة الاستشراق الروسية، وهما: **ز. ت. باير** (١٦٩٤ - ١٧٣٨) **وغ. ي. كير** (١٦٩٢ - ١٧٤٠)، اللذان عمدا إلى إدخال بعض الكلمات العربية إلى الروسية، وقاما بكشف خصائص الحرف الكوفي على (١٨) قطعة نقدية عربية. ولقد أثبت **كير** خطأ النظرة الشائعة آنذاك بأن الحرف الذي يستعمله العرب لم يكن من صنعهم، بل إنه جاء إليهم من الهند. وفي عام (١٧٣٧)، طلبت منه أكاديمية العلوم الروسية إعداد كاتالوج عن صناعة علم المسكوكات الشرقية؛ وقام بالفعل بإعداد مجلدين عن المسكوكات الشرقية ـ العربية والفارسية والتركية والتترية والكازاخية وغيرها[٢٣]. وكان هذان المجلدان الوحيدين من نوعهما في الأدبيات العلمية الروسية، وهما يرتديان أهمية علمية وتجارية في الوقت نفسه. فمن خلالهما تعرَّف الروس على فن وصناعة المسكوكات الشرقية وعلى ظروف نشأتها وتاريخها، أضف إلى ذلك، أهمية التعرُّف على القيمة الذهبية لهذه العملات ومكانتها بين العملات الأجنبية.

لقد طمح **كير** أن يكوِّن جيلاً من المستعربين والمستشرقين، وبالفعل فلقد بدأ بتدريس ستة من الطلاب كانت قد أرسلتهم إليه الأكاديمية السلافية ـ اليونانية ـ اللاتينية في موسكو. بيد أن وزارة الخارجية الروسية لم تفسح لهم المجال لمتابعة الدراسة، وهذا ما يشير إليه كراتشكوفسكي. فلقد أُعفِيَ أربعة منهم من الدراسة، وأرسل الآخران إلى إيران. وحاول أن يقنع المسؤولين باستحداث قسم خاص تابع لأكاديمية العلوم الروسية، أي إحياء فكرة بطرس الأكبر. إلاّ أن أفكاره كانت كثيراً ما تجابه بالرفض، لأنهم كانوا يعتبرونه «ذلك

الرجل الغريب الأطوار الذي يعتبر قراءاته العلمية الشرقية فوق كل شيء»[٢٤].

هذا، ولقد شهدت فترة ما بعد نشاط **العالم كير** مرحلةً من عدم الاهتمام الجدي في الدراسات الشرقية، باستثناء نشاطات بعض الدبلوماسيين التابعين لوزارة الخارجية، وآخرين كانوا قد تتلمذوا على أيدي مستشرقين هولنديين وبريطانيين ومجريين، من أمثال: المستشرق الانكليزي **يوحنا جاكوب** (١٧١٦ - ١٧٧٨)، والمجري **يوحنا أوري** (١٧٢٤ - ١٧٩٦). وبعد عودة البعثات الطلابية إلى روسيا، في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، توزَّعوا على عدة لجان علمية، واشتغل بعضهم في وزارة الخارجية. ومع الزمن، ازداد الاهتمام في تعلُّم اللغات الشرقية إلى أن أصدرت القيصرة **كاترينا** قراراً بتاريخ (٢٧ أيلول/سبتمبر ١٧٧٢)، يقضي بإلزامية تدريس اللغة العربية في المدارس المختصة بتعليم اللغات الشرقية، إلى جانب التترية والفارسية والبوخارية[٢٥].

لقد كان الاهتمام في تدريس اللغات الشرقية يرتدي دون شك طابعاً سياسياً. ومن جملة الخطوات التي قامت بها القيصرة **كاترينا** في برنامجها الدعائي العلمي هو توكيلها للأكاديميين في كلٍّ من بطرسبورغ وقازان بإعادة طبع القرآن وتوزيعه بكميات كبيرة بين مسلمي روسيا القيصرية في آسيا الوسطى. وكانت ترى في هذا الأسلوب منفعة سياسية تساعدها في التقرُّب من الشخصيات السياسية المؤثرة وسط المتدينين الآسيويين وتعبئتهم، ليكونوا للسلطات القيصرية احتياطاً بشرياً ومادياً في معاركها ضد الاتراك. ولقد تم فعلاً إعادة طبع القرآن، بعد أن استعان الاكاديميون الروس بالخبرة التكنيكية الغربية في طباعة الحرف العربي، ووُزِّع بأعداد كبيرة بين مسلمي آسيا الوسطى. وفي تلك الفترة بالذات، بُذلت محاولتان لترجمة القرآن مرة أخرى إلى الروسية، بيد أن النجاح لم يُكتب لها[٢٦].

ولقد تزايد الاهتمام العلمي والأدبي الروسي بالثقافة العربية بعد ترجمة كتاب «ألف ليلة وليلة»، بين أعوام (١٧٦٣ - ١٧٧١)، وطبع بعدئذ أربع مرات في أعوام (١٧٧٦، ١٧٨٤، ١٧٨٩، ١٧٩٦ و١٨٠٣). لقد أحدث هذا الكتاب ضجةً كبيرة في الأوساط الروسية الثقافية، وكان له تأثير ملحوظ بين الأدباء الروس، إذ نُسجت حوله المئات من القصص والروايات. وبعد ذلك، قام الأدباء الروس بترجمة قصص ونوادر وحكايات شرقية وعربية عن الفرنسية، على سبيل المثال: «عمر وقصص عربية»، «طرائف آسيوية»، «حكايات شرقية». وكانت أهم الأدبيات العربية تترجم عن الالمانية والفرنسية[٢٧]. وبهذا تكون الثقافة العربية في عصر **كاترينا قد** دخلت اهتمامات ومخيلة المثقفين والادباء الروس. وبرزت الحِكَم والطرائف وأخبار العلوم والفلسفة في صدر المجلات الثقافية. وأُعدَّت قواميس لغوية عدة في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، لعلَّ أهمها القاموس المقارن لكل اللغات واللهجات الأجنبية، حيث أدرجت اللغة العربية كإحدى اللغات الرئيسية إلى جانب

الفرنسية والانكليزية والألمانية والفنلندية[٢٨] .

لقد تمحورت إحدى الاهتمامات الاكاديمية للعلماء اللغويين الروس حول جمع أكبر كمية ممكنة من الكلمات والمخطوطات العربية، لتكوين أرشيف من المعلومات للاستفادة منها في أكثر من مجال. والقيام بنشر دراسات عدة حول تاريخ ومنشأ الآداب واللغة الروسية، حيث أشار المؤرخ **براتشيف** والعالم اللغوي **بالتين** إلى أن الكثير من الكلمات الروسية يرجع أصلها إلى اللغة العربية؛ ويسرد العالم **بالتين** قائمة من المصطلحات اللغوية والدينية والسياسية والعلمية والفلسفية . . . ولعلَّ أهمها، التالية:

ـ المصطلحات القانونية والسياسية: مجلس، قاض، ولايات، عرف، جزية، مهر، طلاق، حدود، وغيرها . . .

ـ المصطلحات الدينية: جهاد، الملأ، شيطان، إمام، شيخ، رمضان، حج، وقف، هجرة، قبة، رحمة وغيرها . . .

ـ المصطلحات العلمية العربية «المأوربة»: أدميرال، الكيمياء، الجبر، الكحول، الاكسيد، وغيرها . . .

هذا، إلى جانب الآلاف من الكلمات العربية المحوَّرة الأخرى، في كافة الاختصاصات التي دخلت الروسية عن طريق اللغات التترية والاوزبكية والأذربيجانية والكازاخية وغيرها، ناهيك عن الكلمات العربية التي استقرت في اللغات الآسيوية السوفياتية[٢٩] .

بيد أنه من الملاحظ، بأن الاتجاه الذي كان يعير الأهمية الخاصة لإبراز اللهجات الشرق ـ أوسطية، كان ما يزال يحاول أن يضع العربية في مقام اللهجات السورية والمصرية واليمنية والعبرية. ولعلَّ الهدف من وراء ذلك كان ـ كما يشير كراتشكوفسكي ـ «هو إبراز دور اللغة العبرية وإعطاؤها مكانة أكبر من حجمها وتأثيرها بكثير»[٣٠] .

إذن، لقد تطوَّر الاهتمام بالثقافة العربية، رغم محاولات التشويه والطمس التي قام بها عددٌ من المستشرقين الغربيين وأتباعهم في روسيا القيصرية، وبالذات هؤلاء الذين عمدوا إلى إحلال اللغات السامية القديمة وبالذات العبرية محل اللغة والحضارة العربيتين. غير أن هناك ثلاثة عوامل، حالت دون أن تبلور مدرسة الاستشراق الروسية وجهها العلمي، حتى أواخر القرن الثامن عشر، وهي:

الأول، عدم تدريس العربية بشكل منتظم ودائم في المدارس العليا الروسيا المختصة باللغات الشرقية.

الثاني، هو قلة الكادر العلمي والمعلومات والمخطوطات العربية اللازمة. وضعف المنهج العلمي الروسي في

ميدان الدراسات الشرقية، الذي كان يعكس ضعفاً عاماً في مستوى الدراسات العلمية.

الثالث، اعتقد البعض من المشرفين على أكاديمية العلوم الروسية بأن لا فائدة مرجوة من تعليم العربية وبعض اللغات الشرقية، على أساس أنها - على حد اعتقادهم - قد شاخت ولا تأتي للدولة بأية فائدة.

إلى ذلك، فقد ظهرت البدايات الأولى لتكوين مدرسة استشراقية روسية مستقلة في جامعة خاركوف، حيث عمل المستشرق **البروفسور بيراندت** في إرساء تقاليد علمية جديدة في تعليم اللغات الشرقية، بيد أن مكوثه مدة قصيرة في جامعة خاركوف لم يمكنه من تحضير كوادر علمية جديدة. جاء بعده المستشرق الألماني **رامل** (١٧٧١ - ١٨٥٩)، الذي كان معجباً باللغة العربية، ووصفها بأنها «لغة رائعة وغنية جداً». وكان وجوده في روسيا، في محض الصدفة، أثناء هجوم نابليون على ألمانيا، حيث تعاقدت معه جامعة خاركوف، وبدأ العمل فيها من عام (١٨١١) حتى عام (١٨١٤)، حيث ترك مجموعة من الآثار العلمية، منها: «تأملات عن العرب»، و«أبو الفدا» وأهّل عدداً من التلاميذ الجامعيين[٣١]. جاء بعد «رامل» الأكاديمي **دورن** الذي أدخل على قسم تدريس اللغات الشرقية في جامعة خاركوف عدداً من اللغات الشرقية الجديدة، كالأفغانية والتركية والأثيوبية. وقام بفهرسة عددٍ من المخطوطات الشرقية. ولقد كان لهذا الاكاديمي تأثير كبير، ليس على النشاط العلمي في جامعة خاركوف وحسب، بل إنه امتد ليشمل العاصمة بطرسبورغ ومدينة قازان. حيث كان من المساهمين الأوائل في تأسيس مراكز علمية لدراسة الشرق.

المدينة الثانية التي كانت مركزاً هاماً للدراسات الشرقية، هي قازان، حيث أمّها **البروفسور فرين** (١٧٨٢ - ١٨٥١)، والذي كان قد اصطدم هناك بصعوبات كثيرة بين الأوساط العلمية. غير أن مكوثه فيها لمدة عشر سنوات، جعله يخلق نواة نشيطة لدراسات علمية في القضايا الشرقية. ففي عام (١٨١٤) أعاد طباعة القرآن الكريم في قازان، وأعاد طباعة العديد من الأسفار والحكم العربية، وحاول أن يؤسس معهداً للدراسات الشرقية في الجامعة. بيد أن الحماس الفاتر الذي لقيه في قازان جعله يتجه بعدئذ إلى العاصمة بطرسبورغ.

أمّا في مدينة موسكو، فلم تنشط فيها الدراسات الشرقية إلاّ في فترة متأخرة جداً، رغم أن محاولات أولية بذلت من قبل البروفسور الروسي **بلديريف** (١٧٨٠ - ١٨٤٢) الذي تتلمذ على أيدي مستشرقين ألمان وفرنسيين؛ وكان للمستشرق الفرنسي **سلفسترا دو ساسي** (١٧٥٨ - ١٨٣٩)، أثر ملحوظ على توجيهاته العلمية. وقام **بلديريف** في عام (١٨١١) بتدريس العربية في جامعة موسكو، ومن ثم ترأس قسماً جديداً لتعليم اللغات الشرقية، وحاول الإشراف على إصدار كتب عربية في «النحو والصرف» مستنداً في معظم موادها على أعمال سلفسترا دو ساسي. وقد لاقت تلك الكتب نقداً لاذعاً من مستشرقي بطرسبورغ، ومن أستاذه دو ساسي

لأنها لم تأت بأية نصوص جديدة. بيد أن هذه الكتب، وبالذات الكتاب المدرسي لتعليم اللغة العربية يُعتبر انجازاً كبيراً، لأنه الأول من نوعه في الكتابات اللغوية الروسية عن العربية[٣٢]؛ لقد بقي هذا الكتاب ولمدة أربعين عاماً المرجع الأساسي في جامعة موسكو، إلى أن طبع الكتاب الجديد الذي ألّفه العالمان **غرغس ورازين** في عامي (١٨٧٥ و١٨٦٧).

لقد كان **لبلديريف** وتلامذته فضل كبير في ترجمة قصص وحكم شرقية إلى المجلات الروسية. ومن تلامذته الذين ساهموا في أعمال الترجمة: **كاركونوف** (١٨٠٦ - ١٨٥٨)، الذي ترجم قصائد لم نتعرَّف على عناوينها للنابغة الذبياني. كما ساهم بلديريف - الذي عمل فيما بعد عميداً لجامعة موسكو - في تعريف الأدباء الروس الكبار كـ **ليرمنتوف وغونشيريف** على آداب العرب وحضارتهم. وترك عدداً من القصائد والقصص عن الشرق العربي عكس حبه وتعلّقه بالأدب العربي[٣٣].

مدينة أخرى اهتمت بالدراسات الشرقية، هي فيلنوس. فبحكم قربها من بولونيا - حيث بدأت هناك حركة الاستشراق نشيطة - تأثرت الأوساط العلمية بفيلنوس بالمناخ العلمي في بولونيا والمدن الروسية الرئيسية الأخرى. ومن أشهر مؤرخي تلك الفترة المؤرخان **غردويك** (١٧٨٦ - ١٨٢٥) **وليليفال** (١٧٨٦ - ١٨٦١)، اللذان تركا تأثيراً علمياً ملحوظاً على مدرسة الاستشراق الروسية. من نتائجه: «جغرافية القرون الوسطى» الذي صدر كسلسلة من الكتيبات بين أعوام (١٨٥٠ - ١٨٥٧). ومن العلماء المشهورين آنذاك والذين جذبتهم الحضارة العربية: **برغيليوفسكي** ثم **إلينا غانسكي** زوجة الأديب الفرنسي الكبير بلزاك. إن مكوث برغيليوفسكي عدة سنوات في العالم العربي، ساعده في تشجيع الدراسات العربية في فيلنوس. ولعلَّ من أهم الأعمال العلمية التي تركها: تأسيسه، مع المستشرق **هامير** في فيينا، مجلة دورية دولية تهتم بقضايا الاستشراق، أطلقا عليها تسمية «Mines d'Orient»[٣٤].

ومن الأسماء الأخرى، التي لمعت في ميدان الاستشراق في فيلنوس، كان **بايروفسكي** حيث تعلم العربية في فيينا وباريس لمدة خمس سنوات (١٨١٧ - ١٨٢٢). حاول التعرّف في فيينا على الشخصية الثقافية العربية المشهورة، التي كان لها تأثير على عدد من المستشرقين البارزين في باريس وفيينا، هذه الشخصية هي **ع. العريفي** (١٧٣٦ - ١٨٢٠). إلاّ أن **بايروفسكي** لم يتمكن من اللقاء بعريفي في تلك الفترة، لأن هذا الأخير كان قد عاد إلى وطنه سورية.

بعد رجوع **بايروفسكي** إلى فيلنوس في العام (١٨٢٣)، قرأ سلسلة محاضرات عن الأدب العربي. لكنه لم يتمكَّن من متابعة عمله، لأن أحد العمداء - أقوياء النفوذ في جامعة فيلنوس - الذي عرف بحماسه لتعليم وإبراز اللغة العبرية، لم تعجبه محاضرات بايروفسكي، فتم نفيه إلى أحد الأديرة البعيدة عن فيلنوس، ولم يعد إلى الجامعة

إلاَّ بعد أن أجبر على تغيير اهتماماته العلمية، حيث بدأ يبحث ويحاضر في تاريخ الأدب السلافي.

وبهذا، ورغم الصعوبات الكثيرة التي اعترضت المستعربين الروس، فلقد خطت مدرسة الاستشراق الروسية خطوات نحو مدرسة مستقلة عن الاستشراق الغربي؛ إذ توفَّرت كمية لا بأس بها من المواد والمخطوطات والقواميس الشرقية. ولعبت الترجمات الروسية للأدب والعلم العربيين دوراً تأثيرياً على الثقافة الروسية. ـ بيد أن مدرسة الاستشراق الروسية لم تتبلور إلاَّ على يد المستشرقين في العاصمة بطرسبورغ، وتحديداً ابتداءً من الثلث الأول من القرن التاسع عشر. وغلبت الدراسات اللغوية على معظم الكتابات التي ألَّفها المستشرقون الروس بالتعاون مع الألمان والفرنسيين. وكان معظمها يتركَّز حول إصدار كتب مدرسية جديدة تعرّف باللغة العربية وآدابها. ولعل أهمها، في أوائل القرن التاسع عشر، إصدار المستشرقين الروس طبعة جديدة لكتاب المستشرق الألماني **ادلونغ** (١٧٣٢ ـ ١٨٠٦)، حول قواعد النحو والصرف في اللغة العربية، يتألف من أربعة أجزاء، تبعته كتب أخرى، في العشرينات كانت متفاوتة النوعية والحجم. إذ إنها أحدثت ردود فعل مختلفة بين الأوساط العلمية الروسية المهتمة بدراسة اللغات الشرقية، ففي عام (١٨٢٠) مثلاً، صدر كتاب حمل اسم «Die Koran, Oder Tanger-Sprache» [٣٥] حاول الكاتب، الذي اعتمد على دراسات أدلونغ، تشويه الحرف العربي الراهن، وذلك عبر طروحاته الداعية إلى استعمال الأحرف «الحميرية»، التي كانت سائدة في عصر الجاهلية وما قبلها في الجزيرة العربية، للتعبير عن الثقافة العربية. ولعل الهدف الكامن وراء هذه الطروحات، هو محاولة انعاش بعض اللهجات والأحرف الابجدية البائدة مكان العربية. لقد قام المستعرب الروسي الكبير **فرين** بالتصدي لهذه الفكرة الخاطئة، وبفضحها لكونها تتمتَّع بأنصار لها، ليس في روسيا وحسب، بل وفي بلدان أوروبا الغربية.

مثل هذه الأفكار ظهرت بأشكال متنوِّعة، وبنسب متفاوتة من الوضوح، في أعمال اللغويين الروس والأجانب؛ ففي عام (١٨١٠)، صدر في موسكو كتاب للمؤرخ **أرلوف**، بعنوان «موجز تاريخ كتابة اللغات، نشأتها، انتشارها وتحولاتها»، يتناول المؤلف فيه الظروف والتحوُّلات التي طرأت على تاريخ عدد من اللغات، ومنها بعض اللغات الشرقية، كالتركية والاثيوبية والمنغولية واللغات السامية. وهنا، يقع الكاتب في خطأ فادح، عندما يقول بأن أصل كل اللغات السامية جاء من اللغة العربية. هذا الخطأ، كان يسيطر على تفكير العديد من المستشرقين الغربيين أيضاً. وعلى ما نعتقد أن **أرلوف** لم يتعمَّد الخطأ حول هذه النقطة، فهذا يرجع، على الأرجح، إلى عدم إلمامه الواسع بتاريخ اللغات السامية، والذي يؤكد استنتاجنا هذا، هو إشادته باللغة العربية التي انتشرت في معظم بلدان الشرق. ففي معرض حديثه عن العربية التي أفرد لها فصلاً كاملاً في كتابه، يقول أرلوف: «لا يحتاج أي امرىء يجيد اللغة العربية إلى مترجم، عند تنقله من افريقيا باتجاه الشرق حتى

الصين، ومن الشمال حتى روسيا باتجاه الغرب، ومن الغرب حتى أقاصي افريقيا الشمالية، وذلك لأنه يجد في كل هذه الأماكن محمديين، يتكلّمون العربية »[٣٦].

وفي تلك الفترة بالذات، برزت بعض الأصوات التي هاجمت الأدب والشعر والحضارة العربية ـ الاسلامية بشكل عام، ومنهم عميد جامعة قازان **براتشكوفسكي** آنذاك، الذي انبرى ليكرِّر ما يقوله « المركزيون الاوروبيون »، أمثال: **ماسينيون وآرون**، من « أن شعر الشعوب الاسلامية سطحي، بعيد عن العمق الجمالي والفلسفي، وأفكاره كلها متقاربة...، كما أن الحِكَم و« الانجازات الحضارية العربية » لم نجد فيها أي شيء مميَّز... وإذا كان هناك من تطوُّر جرى في مرحلة معيَّنة من تاريخ الحضارة العربية ـ الاسلامية، فهذا يرجع إلى اليونان وبخاصة إلى أعمال الفيلسوف الكبير أرسطو... فالثقافة الاسلامية جامدة غير قابلة للتطوّر...». هذه الأفكار المنافية للحقيقة، كانت تكرِّر وتردِّد بشكلٍ ببغاوي ما كان يفكِّر به ويُحاول تثبيته « كستريوتبيات ثابتة » في ذهن الانسان الاوروبي، بعض المستشرقين الغربيين الذين كانوا يفكّرون، انطلاقاً من مصالح الطبقات الحاكمة في دولهم، وانطلاقاً من الأرضية المثالية ـ الدينية والعنصرية التي كانت توجِّه رؤيتهم الايديولوجية العامة للعالم العربي.

بيد أنه من الملاحظ، أن هذه الأفكار الخاطئة اللاعلمية لم تترك آثاراً ملموسة على تطوُّر مسيرة الاستشراق الروسية في ذلك الوقت. فالاتجاه الصحيح، هو الذي طبع، إلى حد ما، مسيرة الاستعراب الروسية بطابعه. فآراء المستعربين الروس كانت تتميَّز برؤية موضوعية عادلة للتراث العربي، والدليل على ذلك هو حماسهم تعليم اللغة العربية، بشكل منتظم ودون توقف مند عام (١٨١٨)، في أهم جامعات روسيا آنذاك، جامعة بطرسبورغ. وفي هذا العام بالذات، تم تأسيس « المتحف الآسيوي » التابع لأكاديمية العلوم الروسية، الذي ترأس أعماله ونشاطاته المستعرب الكبير **فرين**، الذي كان من أشد المتحمسين للتعمق في دراسة الثقافة العربية.

ومنذ ذلك الحين، نستطيع القول بأن مدرسة الاستعراب الروسية بدأت تقف على رجليها، ساعدها في ذلك وجود خطة علمية لدراسة المخطوطات العربية التي بدأت تدخل خزانة المخطوطات في المتحف الآسيوي، ونجح هذا المتحف بشد معظم المستشرقين الروس إليه. ويعود الفضل في نجاح أعماله إلى فرين، الذي أشرف عليه حتى مماته في عام (١٨٥١)؛ ولقد كان للديبلوماسي الروسي **ايطالينسكي** دور ملحوظ في تأسيس ونجاح أعمال « المتحف الآسيوي »، غير أنه من الملفت للنظر أن هذا المتحف « كان بمثابة مركز علمي، فيه توضع المخطوطات الشرقية وتدرس ويحقق بها؛ ومنه أيضاً، كانت تصدر دراسات علمية متنوعة حول الشرق ».

لقد كان للجهود الشخصية الكبيرة العلمية، التي قام بها مؤسس المتحف فرين، الدور الفعال في تبويب الأقسام وتنظيمها، وفي إرساء تقاليد علمية جديدة لدراسة الآثار الشرقية من قطع نقدية ونماذج مختلفة عن

بعض المعالم الحضارية العربية. وبجهوده أيضاً، لفت أنظار الذين حوله من الاختصاصين على ضرورة وأهمية دراسة المسكوكات العربية. ووضع في عام (١٨٢٣) دراسةً عن «ابن فضلان»[٣٧]، ما زالت حتى الآن ترتدي أهمية خاصة، لأن الباحث الذي يقرأها يتمكن من الاستدلال على الطريقة الفضلى لدراسة المراجع الروسية والأجنبية، المتعلقة بالتراث العربي وبتاريخ الاستعراب الروسي. كما أنه (أي فرين) كتب عدة مقالات علمية عن الاستشراق الاوروبي والروسي، نشرها في مجلات غربية وروسية. وعمله في «المتحف الآسيوي» الذي قام في الواقع على أكتافه، يكون قد أرسى حجر الزاوية لمدرسة علمية متكاملة، لدراسة المخطوطات الشرقية؛ حيث أدخل، هو بالذات، الطباعة العربية إلى المتحف، فحافظت على العديد من المخطوطات القديمة التي كانت مكتوبة على الجلد.

إن نشاط فرين في «المتحف الآسيوي»، أكسبه احترام وتقدير كل المستشرقين والمستعربين الروس، فعلى حد قول المستشرق **سافالييف**: «لا يوجد مستشرق في روسيا إلاَّ وتأثر بفرين... وذلك بفضل إحساسه العلمي المرهف وثقافته الأكاديمية العالية. كان يوجد قبله في أكاديمية العلوم علماء مشهورون، أمثال كير وكلبروت. بيد أن مؤلفات هؤلاء لم تترك آثاراً قوية في العلم الروسي؛ أمَّا فرين، فلقد ترك أعمالاً عظيمة تركت آثارها على كل الأبحاث الروسية حولالاستشراق»[٣٨]. وعلى خطاه سار تلاميذه، الذين ساهموا بدورهم في تقدُّم علم الاستشراق، وأهمهم **سينكوفسكي وفولكوف**.

في النصف الأول من القرن التاسع عشر، لمعت شخصية علمية في ميدان الاستشراق الروسي، هي البروفسور **سنكوفسكي**. لقد كان البروفسور الوحيد في عصره، الذي مكث في العالم العربي عدة سنوات، حيث أتقن اللغة العربية بشكل جيِّد. رافق هذا، إلمامُه الواسع ـ العميق بكافة التيارات الثقافية السائدة، وموهبته الأدبية الفذة.

غير أن الظروف التي كانت محيطة به في جامعة بطرسبورغ، لم تساعده على العمل بشكل منتظم. وهذا ما انعكس ايضاً على نتاجه وأعماله التي كانت قليلة جداً. ترك الجامعة بعد خمسة وعشرين عاماً من التدريس فيها. وترك في نفوس الذين عرفوه انطباعات مختلفة، فمنهم من أشاد بموهبته اللغوية والكتابية، وبمحاضراته القيِّمة والغنية بالمعلومات، ومنهم من حاول أن يسيء إليه ويشوِّه سمعته العلمية. وشارك في حملات التشويه ضده عميد وأساتذة جامعة بطرسبورغ آنذاك. وفي الواقع لم يُعرف سبب هذه الحملة: هل هناك أسباب سياسية، أو أن هناك خلافات مع أصحاب النزعة المحبة للتسلط والأضواء، أم أن هذا، يرجع إلى أنه كان المستشرق الوحيد في عصره الذي يرجع المصدر الأصلي إلى المخطوطات العربية، وإلى معرفته الواسعة بالثقافة العربية، مما كان يشكِّل مصدر قلق لأولئك الذين أدانوا بالولاء لما أسميناهم بـ «المركزيين الاوروبيين»؟.

كما يبدو، أن كل هذه العوامل كانت السبب الرئيسي في التشويش والضغط عليه، لكي يبتعد عن ميدان الاستشراق. على الرغم من هذا، فقد ترك عدة أعمال أشاد فيها كبار أدباء ونقّاد روسيا، أمثال بوشكين وكلوهيربرغ وتشرنيشفسكي. أهم أعماله «قصص شرقية» و«مذكراتي عن سورية»، و«محاضرات متنوّعة عن اللغة والأدب العربي». كما أنه حرَّر مع تلامذته، سافالييف وغريغورييف، القسم المتعلّق بالشرق والاستشراق في «القاموس الموسوعي»، الذي صدر في بطرسبورغ بين أعوام (١٨٣٥ - ١٨٤١)[٣٩].

في العقدين الثالث والرابع من القرن التاسع عشر، كانت الحركة الأدبية في روسيا نشطة، وقد شهدت تلك الفترة ترجمات أدبية عن العربية، أهمها: «رحلات السندباد» للمستشرق **تيجوليف**، الذي ترجم أيضاً قصائد للشاعر المصري - الذي عاش في القرن الثالث عشر - عمر بن فريد، وقصائد أخرى لم نستطع التعرف على عناوينها للشاعر العربي الكبير المتنبي.

بذلت محاولة جديدة في عام (١٨٣٢)، لترجمة «ألف ليلةوليلة» عن العربية مباشر، وذلك من قبل تلميذ سنكوفسكي المستعرب غوسييف، إلاّ أنه لم يتمكن من إنهاء مشروعه، لأن المنية داهمته وهو يقوم بمهمة علمية في مصر.

والجدير بالذكر، أن القسم المدرسي المختص بدراسة اللغات الشرقية كان يعير اهتمامه لتعليم العسكريين أيضاً، فكانوا يرسلون في بعثات خاصة إلى الشرق، حتى أن بعضهم كان يترأس القسم المدرسي، أبرزهم في تلك الفترة: الضابط المهندس **م. غامازوف** (١٨١٢ - ١٨٩٣)، الذي كان يقوم بزيارات كثيرة إلى الشرق، وبالذات إلى اسطنبول ومصر، حيث مكث هناك ما يقارب العشرين سنة (١٨٧٢ - ١٨٩٢). جمع خلال هذه المدة أرشيفاً من المخطوطات والتحف، كانت ثمينة جداً للقسم الذي كان يترأسه؛ ومنه كان يختار المستعربون الروس بعض المخطوطات لكي يترجموها إلى الروسية.

إن الطابع الذي كان يغلب على النشاط الأدبي، هو ترجمة القصص والحكايات والأشعار الرومانسية عن العالم العربي. اشتهر آنذاك في ميدان الترجمة الصحافي والمستعرب **ف. بيرغ** (١٨٢٣ - ١٨٨٤)، الذي ترجم مجموعة قصائد وأغاني عربية، نشرت في سلسلة «أغاني الشعوب» في المجلات الروسية في مدينة بطرسبورغ[٤٠].

إن نوعية النتاج الأدبي والفلسفي والسياسي المترجم، ومكانة العاملين في ميدان الاستعراب، كانتا بمثابة المحور الذي يحبِّب أو يبعد القارىء الروسي عن تراثنا وثقافتنا العربيين. فالمكانة العلمية الكبرى والمعرفة الموسوعية والإلمام العميق بثقافة العرب - التي كانت تميِّز أفكار ونشاط فيرن وسينكوفسكي - كانت موضع تقدير واهتمام الأوساط الادبية والثقافية الروسية. وبواسطة هذين المستشرقين الكبيرين، تطوَّرت حركة الاستعراب الروسية.

في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، رافق مسيرة الاستشراق الروسية العالم المصري **شيخ طنطاوي،** الذي صادق فيرن وسنكوفسكي وسافالييف وغيرهم، وكان له تأثير ملحوظ على العديد من المستعربين، وبخاصة الفنلنديين منهم. ولقد لعب الطنطاوي دور صلة الوصل الثقافية بين المستشرقين في بطرسبورغ وبين الكتّاب والأدباء المصريين، كأحمد تيمور ومحي الدين الخطيب وغيرهم. ولقد أسس، في الواقع، جيلاً من المستشرقين كانت تربطهم ببعضهم علاقات حميمة. ولقد قال عنه المستشرق الكبير **غريغورييف:** « محاضراته كانت غنية جداً بالمفردات واللفظ العربي الجميل والسليم، كما أنه كان انساناً رائعاً، عصامياً في أخلاقه، مفيداً وغيوراً على طلابه »[٤١]. كما أنه عرّف المستشرقين والوسط الأدبي في بطرسبورغ على مؤلفاته، التي قدرت بحوالى (٢٧ مؤلّفاً) بين تأليف وتحقيق لمخطوطات قديمة. هذا، عدا عن عشرات المقالات اللغوية التي نشرها في المجلات المصرية، منذ كان طالباً في الأزهر وحتى قبيل رحيله إلى روسيا في عام (١٨٤٠)، حيث بدأ العمل في جامعات العاصمة حتى مماته في عام (١٨٦٠). ودفن في مقبرة العظماء في قازان[٤٢].

هذا، ولم ينحصر تأثيره على مدرسة الاستشراق الروسية، بل على المستشرقين الالمان والفنلنديين والمجريين أيضاً، ولعلَّ أهم طلابه، المستشرق الفنلندي **جورج وليم** (١٨١١ - ١٨٥٢)، الذي قال عنه كراتشكوفسكي « إنه يملك موهبة لغوية عربية فذة »[٤٣].

بعدها، قام وليم بتدريس العربية في بطرسبورغ؛ ونشر مقالات متعددة عن الحضارة العربية الاسلامية في مجلات هلسنكي، إلاَّ أن المنية داهمته وهو في عمر الشباب؛ ولم يترك أية أعمال مكتوبة. في عام (١٨٥٢)، سافر تلميذ وليم الدكتور **غيرمان شيلفرين** إلى بطرسبورغ، ليتعلّم العربية على يد الطنطاوي، غير أن مصيره كان كمصير استاذه الفنلندي. إذ توفي شاباً عن عمر يناهز (٣٤) عاماً[٤٤]. وبعد مكوث الطنطاوي مدة عشرين عاماً في روسيا، رجع إلى بلاده، ولم يُعرف بعدئذٍ عن نشاطه شيء.

هذا، ولم تكن الصحافة الروسية، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، بعيدة عن تغطية ومتابعة مسيرة الاستعراب الروسية؛ فبواسطة أعمال المستشرقين الكبار، أمثال: فرين وسينكوفسكي، ازداد الاهتمام بالثقافة العربية، ودفع بالبعض من المثقفين الطليعيين آنذاك للكتابة عن الأدب العربي. لعلَّ أهمهم أحد رموز حركة « الديكابريين »[٤٤]: **بوشكين،** الذي كان يكتب عن « القصة الشرقية ». كما أن **تورغينيف** الكاتب الروسي الكبير الذي دخل قائمة الكتّاب العالميين، كان بدوره يتابع الشعر العربي من خلال الترجمات الموجودة في الروسية، ومن خلال قراءاته للقصة والشعر العربيين في اللغة الانكليزية. كتب قصائد عن فلسطين وجبال لبنان، نشرها في مجلة « أتياتشفني زابيسوك »، وتناول الصحافي **كرايفسكي** الأحداث التي كانت تعيشها مصر في الأربعينات من القرن الماضي، ونشرها في المجلة المذكورة آنفاً؛ وكان الناقد الروسي الكبير **دويرلوبوف،**

يتناول بالتحليل والنقد العلمي الدراسات الروسية الاسلاماتية؛ هذه الدراسات كان لها أثر ملحوظ على تفكير المثقفين الروس، ذلك لأنها تناولت الاسلام بشكل موضوعي، لا يمت بصلة للتعصّب الديني، نشرها دويرلوبوف في مجلسه «سافرنيك» في عام (١٨٥٨)[٤٥]. وفي العام (١٨٦١)، نشر الدبلوماسي الروسي **بازيلي** كتاباً عن «سورية وفلسطين»، تناول فيه الوضع الاقتصادي والسياسي الذي يعيشهعذان البلدان؛ وأعطى فيه صورة مشوِّقة عن العادات والتقاليد، التي كان يمارسها سكان ضهور الشوير في لبنان. ولم ينس في إفراد فصل خاص من كتابه عن الطبيعة الخلاّبة في الشوير وضواحيها، ولقد نشرت وقدَّمت هذا الكتاب المستشرقة السوفياتية المعروفة سمالينسكيا في عام (١٩٥٦).

إن انطباعات السواح عن العالم العربي والأماكن المقدسة في فلسطين، كانت تترك أصداء مختلفة في الصحف، ففي السابق كان السوّاح يركِّزون انتباههم على القدس، إلاّ أن الاهتمام بدأ يتوسع ليشمل دراسة الوضع السياسي والفكري والسمات الاتنوغرافية والجغرافية لشعوب المنطقة.

ففي عام (١٨٤٨)، نشر الرحالة الروسي ورجل الدين **مورافييف** كتاباً، حمل العنوان التالي: «رسائل عن المحمدية»، يحلل فيه الديانة الاسلامية وعادات الشعوب العربية مركزاً على تعلّقها بالروحانيات، وعلى تمسُّكها بالعادات العربية القديمة، التي تدعو إلى الشهامة والضيافة والشجاعة[٤٦].

في عام (١٨٥٠)، نشر العالم الروسي رافالوفيتش كتاباً عن السمات الاتنوغرافية للشعب المصري، كما أنه تناول ظروف الحياة الاقتصادية والاجتماعية التي كان يعيشها المصريون آنذاك[٤٧].

في عام ١٨٤٩ نشر الرحالة الروسي **تسينكوفسكي** كتابه «رحلة في كلٍّ من مصر والسودان ووسط افريقيا»[٤٨]؛والكتاب، ما زال حتى الآن، يرتدي أهمية علمية، لأن مؤلفه كان على ما يبدو باحثاً جاداً، تناول عادات هذه القبائل، ودرس سماتها الاتنوغرافية بشكل موضوعي، وفنّد فيه أفكار أنصار النزعة العنصرية التي كانت تميز كتابات العديد من العلماء الغربيين.

ومع ازدياد الاهتمام بالشرق وبالحضارة الاسلامية، ارتفعت بعض الأصوات للمطالبة بتأسيس مجلة مختصة بالاستشراق، إلاّ أن هذه الفكرة لم تر النور إلاّ بعد مئة سنة. كان أول من دعا لتأسيس المجلة، العالم السيبيري **سباسكي** (١٧٨٣ - ١٨٦٤)، إذ إنه كان يطمح لأن يحوِّل المجلة - التي كان يكتب فيها، **أزيتسكي فيستنيك** (البشير الآسيوي) - الى مجلة علمية تتناول قضايا الشرق المتنوعة بالبحث، والتحليل[٤٩]. وفيها، نشر سباسكي دراسات سوسيولوجية عن الأصول الشرقية لبعض الشعوب القاطنة في سيبيريا. نشرت هذه المجلة على صفحاتها أولى الدراسات النقدية الجادة عن رواية «ألف ليلة وليلة»، التي كتبها **ريختر** (١٧٩٤ - ١٩٢٦).

في هذه الدراسة حلّل المؤلف الظروف التاريخية التي عاشها الخلفاء، وتناول البعد الجمالي والعمق الدرامي لهذه الرواية. نشر ريختر أيضاً في عام (١٨٢٥)، أول دراسة جادة في هذه المجلة عن «وضع الاستشراق السلفياني في روسيا»[٥٠]. وكان يهتم بدراسة تاريخ الاستشراق والاستعراب الروسي في الثلاثينات من القرن الماضي، غريغورييف وكاظم بيك، اللذان كانا يدرسان اللغات الشرقية في أكاديمية العلوم الروسية. كما أن **سافالييف** نشر سلسلة مقالات في مجلة «روسكي فيستنيك» (البشير الروسي)، في عام (١٨٥٦)، عن «المراجع الشرقية والاستشراق الروسي»[٥١]. هذه المقالات ما زالت حتى الآن ترتدي أهمية علمية، لأنها تعرّفنا على وضع الاستعراب في ذلك الوقت، وعن المخطوطات العربية التي كانت وما تزال في متناول المستشرقين، وتعطينا صورة عن تأثير الثقافة العربية في المثقفين الروس في ذلك العصر.



أهم المشاريع التي أسهمت في تقدم مسيرة الاستعراب الروسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، هي إقامة «المتحف الآسيوي»، و«الاكاديمية الآسيوية»، والأقسام المختصة بدراسة اللغات الشرقية التابعة لأكاديمية العلوم ولوزارة الخارجية الروسية. كل هذه المؤسسات، جعلت الاهتمام بالتاريخ العربي والثقافة العربية يشمل أوساط واسعة من الانتلجسينا الروسية. ولعلَّ الفضل في هذا، يعود إلى **فرين وسينكوفسكي** اللذين أرسيا حجر الزاوية لمدرسة استشراق أعطت، فيما بعد، أعمالاً علمية هامة، ساهمت في إغناء الثقافة الروسية بشكل عام، واستطاع من خلالها القارىء الروسي أن يوسّع معارفه، ويغيِّر بعض الأفكار المشوَّهة الموروثة عن العالم العربي. ظهرت تلك الأعمال بشكل جلي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وقد ساعد التراث الغني، الذي تركه المستعرب الكبير فرين، في إغناء خزانة المخطوطات في «المتحف الآسيوي»، وفي ترسيخ وتكريس تقاليد علمية في ميدان الاستشراق، الأمر الذي أدّى إلى دفع مسيرة الاستشراق إلى الامام؛ تمثَّل هذا، بإقامة كلية خاصة للغات الشرقية، ثم افتتاحها في الساعة الثانية عشرة من ظهر السابع والعشرين من شهر آب/أغسطس (١٨٥٥). هذه الكلية التي تمركز وتمحور حولها الاستشراق والاستعراب الروسي. ومن الشخصيات العلمية التي ساهمت في نشاط هذه الكلية وفي المتحف الآسيوي كان **البروفسور دورن** (١٨٠٥ - ١٨٨١)، الذي جاء من مدينة خاركوف في عام (١٨٣٥) إلى العاصمة، ليدرس اللغات الشرقية، بما في ذلك العربية في القسم المدرسي التابع لوزارة الخارجية الروسية. وأصبح عضواً في أكاديمية العلوم في عام (١٨٤٢). كان يتميَّز بحبه الكبير للعمل وبمعرفته الواسعة بالشرق وبالعالم العربي، إلاَّ أنه لم يكن على مستوى من النشاط والمعرفة الأكاديمية والتنظيمية التي تميَّز بها سلفه فرين. لقد تابع الدور الذي لعبه فرين في المتحف الآسيوي، إذ إنه نشر كتيِّباً، تناول فيه المسيرة التي قطعها المتحف في خمسة وعشرين

عاماً[٥٢]. إلاّ أن المتحف لم يعد يلعب الدور الأساسي في حركة الاستشراق، وركد دوره إلى أن أعيد تنشيطه بعد قيام ثورة أوكتوبر السوفياتية.

وقد برز نشاط **دورن** في إعداد النشرات البيبليوغرافية عن المخطوطات العربية والفارسية في «المتحف الآسيوي»، وفي قازان وكازاخستان وغيرها. وكانت لهذه النشرات أهمية علمية كبرى في ذلك العصر، لأنها ساهمت في مساعدة البحاثة والمستشرقين عن مكان المخطوطات، وعرّفتهم على أهميتها[٥٣].

أمّا بشأن كلية اللغات الشرقية، فلقد تم إنشاؤها في العاصمة «بطرسبورغ»، ذلك لأن مركز نشاط الاستشراق كان هناك، بعد أن تم إقفال قسم اللغات الشرقية في جامعة قازان. لقد درّس في كلية (بطرسبورغ) عددٌ من الاساتذة سبق وساهموا في تدريس العربية والفارسية والتركية في جامعات روسية مختلفة، أبرزهم: **موفالينسكي** (١٨٠٨ - ١٨٧٧)، كان يجيد العربية جيّداً، وكان على إلمام واسع بمعرفة الحضارات الشرقية الفرعونية والعربية والفارسية[٥٤]. كان يعمل بالسر بعيداً عن الأضواء. لقّبه معاصروه بـ «الصامت العظيم»، لذلك تم ترشيحه وتعيينه، بإجماع الاساتذة، عميداً للكلية في الفترة (١٨٥٩-١٨٦٦).

وبرزت شخصية استشراقية كبرى، كان لها شهرة عالمية ساهمت في توطيد القاعدة العلمية للاستعراب الروسي، هي شخصية **كاظم بيك**. عرفته الأوساط العلمية بتحقيقه ومقدمته للمخطوطة الجغرافية الهامة للعالِم المصري «اليعقوبي»، الذي عاش في القرن التاسع؛ ولقد صدرت هذه المخطوطة في السلسلة التي اكتسبت شهرة عالمية: «Bibliotheca Geographorum Arabicarum»، كما أنه كان من كبار الدارسين في الاسلاميات[٥٥]، وملماً، بأوضاع المسلمين في مدينة قازان، لأنه عاش فترة هناك، حيث قام بتدريس اللغتين العربية والفارسية في الجامعة. بعدها، انتقل إلى بطرسبورغ قبل تأسيس الكلية الشرقية للغات، حيث انتُخب أول عميد للكلية، قبل أن يحل محله **موفاليفسكي**[٥٦]. كانت تربطه علاقة صداقة مع العالم المصري شيخ طنطاوي؛ وكان هذا الأخير يشيد بمعرفة كاظم بيك الواسعة باللغة العربية. أضف إلى ذلك، اتقانه اللغات الاوروبية الرئيسية، وهذا ما أكسبه شهرة واسعة في الغرب، ليس لمعرفته اللغوية وحسب، وإنما لأعماله العلمية التي تضمَّنت دراسات فكرية وبيبليوغرافية، وتحقيقات عن المطبوعات وعن الحضارة العربية ـ الاسلامية. غير أن أوساط الاستشراق الاوروبي الغربي، كانت تعتبره «غريباً» عن الوسط الاوروبي لأنه مسلم، أذربيجاني الأصل. وكان دائماً يرتدي الزي القومي في المؤتمرات العلمية العالمية حول الاستشراق، مما كان يلفت نظر المستشرقين الاوروبيين.

تميّزت هذه المرحلة من مسيرة الاستعراب الروسي، بوجود تيارين: **الأول،** اهتم بالقضايا النظرية البحتة. **والثاني،** ركّز على القضايا العملية الراهنة. لقد كان كاظم بيك من أنصار التيار الأول، الذي شدّد على أهمية

دراسة تاريخ الاسلام. أمّا التيّار الثاني، فلقد كان يمثله تلميذ كاظم بيك، الاختصاصي بقضايا تركيا والشرق الأوسط، بيريزيف (١٨١٨ - ١٨٩٦)، الذي كان يركّز على دراسة القضايا الراهنة التي تعيشها منطقة الشرق الأوسط[٥٧]. جال في تركيا وإيران ومصر، وتعرّف على مشاكلها السياسية وعلى تاريخها، واستطاع أن يأتي بحصيلة من المعلومات والمخطوطات، ساهمت بشكل كبير في إغناء خزانة المخطوطات في كلية اللغات الشرقية. لقد كان يجيد العربية والفارسية والتركية بشكل جيّد، وكان يتميّز بمخيلة شاعرية وأدبية فذة، إذ إنه كان من الكتّاب المشهورين للمجلات المركزية الروسية، مثل: «مكسفيتيان» (الموسكوفي) و(البشير الروسي) و«سافرمنيك» (المعاصر)، وغيرها... ولقد قال عنه أحد معاصريه المستشرق **غريغورييف**: «إنه كان يعي جيّداً ثقافة الانسان الآسيوي، ويتمتّع بموهبة متنوعة أوصلته إلى المكانة التي كان يحتلها سينكوفسكي»[٥٨].

لقد اشتهر بيريزيف بدراساته عن اللهجات العربية، وخاصة دراساته للهجات سكان بغداد والبصرة. وما زالت هذه الدراسات ترتدي أهمية معاصرة، لأنها تتوقّف عند أصول هذه اللهجات وعلاقتها بالسمات الخاصة التي تطبع التركيبة الثقافية لهذا الشعب أو ذاك. ترك بيريزيف أبحاثاً ومقالات علمية في الأدب الشعبي الشرقي، وأفرد له مكاناً خاصاً في «القاموس الروسي الموسوعي»، الذي صدر بين أعوام (١٨٧٢ - ١٨٧٩)[٥٩]. إن عمله الكبير في تعريف القارىء الروسي على الثقافة الشرقية، أكسبه احترام معاصريه؛ لقد كتب عنه المستشرق **فاسيلييف**: «إن أعمال بيريزيف أكسبته المجد، وهو فخر للاستشراق والجامعة معاً»[٦٠]. وثمّن الكاتب الروسي الكبير **تشيخوف** أعماله ومقالاته العلمية عن العالم العربي، في «القاموس الموسوعي الروسي»، وقال «بأن هذه المقالات تفتح أمامنا أفقاً جديداً، من خلاله نطل على ثقافة عريقة وأدب غني في شكله ومضمونه»[٦١].

كلما كانت حركة الاستشراق نشطة، كانت تعلو الأصوات مطالبة بإنشاء مجلة خاصة، تهتم بالدراسات الشرقية. ففي عام (١٨٦٠)، اقترح كاظم بيك على إدارة جامعة بطرسبورغ تأسيس «مجلة آسيا»، وكرّر المحاولة أكثر من مرة. غير أن طلبه لم يستجاب له مما أثار لديه القلق والحيرة. ولقد عبّر عن همومه في الرسائل، التي كان يوجّهها للمستشرق الفرنسي غارسي دي ساسي (١٧٩٤ - ١٨٧٨)، الذي كان يقول له: «لعلّ من دواعي الأسف الكبير، أن يكون في كل الدول الاوروبية الكبرى مجلة تنطق بلسان الاستشراق، باستثناء روسيا التي لا تملك حتى الآن أي شيء من هذا القبيل»[٦٢].

بعد خمس سنوات من محاولة كاظم بيك، نظّم فاسيلييف عريضة وقعها ثمانية من اساتذة كلية اللغات الشرقية، تضمنت اقتراحاً بتأسيس «فيستيك أزي» (البشير الآسيوي)؛ بيد أن الطلب تم تأجيله، وذلك بحجة أن الجامعة لم تتحمّل ميزانية المجلة التي تقدّر بألفي روبل من الفضة؛ وهكذا نام هذا الاقتراح بعد ذلك فترة طويلة من الزمن.

بيد أن الأدب العربي، بدأ يفرض نفسه على الكتابات الموسوعية الكبرى في المؤلفات الروسية؛ ففي عام (١٨٧٧)، صدر كتاب «تاريخ الأدب العالمي» دراسة عامة ـ بيوغرافيا، تقييم ونماذج»، تحت إشراف فلاديمير زاتوف (١٨٢١ ـ ١٨٩٦)، يتضمن هذا الكتاب فصلاً خاصاً عن الأدب العربي[٦٣]. وساهم بإعداد هذا القسم أكثر من كاتب، وجاء كتجميع لترجمات مختلفة عن الأدب العربي وعن الاسلام، وقد غابت عن تأليف هذا الفصل أسماء مشهورة آنذاك في إلمامها الواسع بالأدب العربي، أمثال: **بيتروف** وغرغس. (سيجيء الحديث عنهم فيما بعد)؛ وقد تم تصليح الخطأ عندما تغيَّرت الخطة في تأليف الكتاب، إذ حل محل زاتوف **مجموعة** من الكتّاب، وتم إصدار الكتاب الضخم بين أعوام (١٨٨٠ ـ ١٨٩٢) تحت اشراف كورش وكيربينتسنيكوف؛ ولقد شغل الأدب العربي قسماً خاصاً في المجلد الثاني، الذي صدر في العام (١٨٨٢)؛ كان تحت إشراف المستشرق المرموق خالمغوروف[٦٤].

ومن بين المستشرقين المشهورين، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الاختصاصي باللغات السامية القديمة هوالسون (١٨١٩ ـ ١٩١١)، الذي ترأس القسم المختص باللغات السامية في جامعة بطرسبورغ لأكثر من خمسين عاماً. في بداية نشاطاته العلمية، كتب مؤلفاً ضخماً حوالى (١٠٠٠ صفحة) عن «سبأ والسبأيين» (١٨٥٦). توفرت لديه مكتبة غنية جداً بالمخطوطات العربية، لم نستطع التعرُّف إلا على أسماء بعضها «الزراعة النبطية»، «الحضارة في بابل»، وعن «ابن رشد». كان يعرف العربية جيِّداً[٦٥]. وكانت إدارة كلية اللغات الشرقية تدعوه، بشكل دائم، ليحاضر هناك، وليناقش الأطروحات العلمية عن الشرق. وهو الذي حث المستشرق **برتولد** للتنقيب عن المخطوطات العربية في تركمانستان.

في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، توسَّع تأثير المستشرق غريغورييف (١٨١٦ ـ ١٨٨١)، رغم أنه جاء متأخراً إلى العاصمة، إلاَّ أنه نشط في إطار كلية اللغات الشرقية، حيث شغل منصب العميد في الأعوام (١٨٧٣ ـ ١٨٧٨). أعد في تلك الفترة كتاباً عن تاريخ الجامعة ونشاطها، تضمَّن بعض الأفكار حول تاريخ الاستعراب الروسي؛ وكتب مقالات عديدة عن الاستعراب الروسي في «القاموس الموسوعي»، ودرَّس اللغة العربية سنوات عديدة.

إن افتتاح كلية مختصة لتدريس اللغات الشرقية، جعل الاهتمام يتركَّز ـ بشكل أفضل مما عليه في السابق ـ على قواعد كل لغة من اللغات الشرقية. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، بدأ الاهتمام بتدريس قواعد النحو والصرف العربية يزداد، وتم إصدار كتب جديدة لتدريس اللغة، كانت عبارة عن تجميع للمقالات المنشورة في المجلات المختلفة، كتبها المستشرقون في فترات سابقة. ونقحها وحررها شيخ طنطاوي. وبقي كتاب **بلديريف** عن اللغة العربية المصدر الأساسي لتعليم العربية. في عام (١٨٦٧)، صدر في بطرسبورغ

كتابٌ للمستشرق **نافرتسكي** عن قواعد النحو والصرف العربية، ظل يعتبر من المراجع الهامة، التي ساعدت التلامذة في درس اللغة العربية في القرن الماضي؛ وأدخل نافرتسكي على كتابه مراجع جديدة نشرت في مجلات روسية وأوروبية غربية.

هناك ميزة أخرى رافقت مسيرة الاستعراب الروسي، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، هي التركيز على تحضير المستعربين من سكان آسيا الوسطى، ودعوة اللغويين العرب للعمل في كلية اللغات الشرقية. ففي الخمسينات من القرن الماضي، لم نتمكّن من معرفة الاساتذة العرب الذين عملوا في الكلية؛ تمكّنا من العثور على المراجع الروسية حول هذا الموضوع، التي تشير إلى أنه في عام (١٨٥٢) درّس في قازان، ومن ثم في بطرسبورغ، **مكي أحمد بن حسين المكي**، (لم يشر إلى بلده). حاضر في هاتين المدينتين عن «اللغة العربية المعاصرة»، وكتب في عام (١٨٥٨) كتاباً مدرسياً، حمل العنوان التالي «المحادثة الروسية ـ العربية»[٦٦].

وفي عام (١٨٥٦)، علّم عبدالله كلزي (١٨١٩ ـ ١٩١٢) العربية في بطرسبورغ. وبحسب المعلومات التي استقيناها من أرشيف معهد الاستشراق في موسكو، التي تشير إلى أن عبدالله هذا من أصل أرمني كاثوليكي. درس في العام (١٨٣٧) العربية في سورية، وعاش فترة طويلة من الزمن في بطرسبورغ. ألّف أثناءها كتاباً حول «منهج المحادثة الاجتماعية الروسية ـ العربية» (١٨٦٨)، تضمّن الكتاب بعض الأشعار والحكايات الشعبية العربية[٦٧].

لم تمض فترة قصيرة من الزمن على رحيل فرين وسنكوفسكي، حتى لمعت شخصية علمية، كان لها الأثر الكبير في تطوّر حركة الاستعراب الروسية **غرغس** (١٨٣٥ ـ ١٨٨٧)، روسي الجنسية من أصل ليثواني. أنهى دراسته الثانوية في بطرسبورغ[٦٧ مكرر]، وتعلّم العربية على **نافرتسكي**. كان عليه ـ حسب التقليد المتبع في الكلية آنذاك ـ أن يدرس اللغات الشرقية الأخرى، فركز في البداية على دراسة التركية. قبل أن يسافر في بعثة علمية إلى الخارج، حاول أن يدافع عن أطروحة الماجستير التي حملت العنوان التالي: «غزو مصر والسلطان سليم». إلاّ أن الاقتراح الذي تقدّمت به الجامعة لإرساله إلى فرنسا، حال دون دفاعه عن أطروحته. تعرّف في باريس على المستشرق المعروف سلفستر دي ساي، الذي وجهه بدوره لأن يتتلمذ على كوسان دي برسنال (١٧٩٥ ـ ١٨٧١). وعند رينو (١٧٩٥ ـ ١٨٦٧). مكث غرغس في باريس حوالى ثلاث سنوات، وتأثر كثيراً بأستاذيه، إذ أخذ عنهما إلمامهما الواسع باللغة والأدب العربيين. بعدئذ، زار سورية ولبنان وفلسطين ومصر، حيث مكث فيها ثلاث سنوات، قضى معظم أوقاته في ضهور الشوير؛ تمكن خلال هذه الفترة من التعمّق بدراسة اللغة العربية، ومن التعرف على أهم المستجدات السياسية والأدبية التي تعيشها المنطقة. عندما رجع إلى

روسيا، دافع عن أطروحته التي كانت حول «حقوق المسيحيين في الشرق حسب القوانين الاسلامية»، ارتدت هذه الاطروحة أهمية خاصة لكونها جاءت بعد الاحداث الطائفية الدامية في لبنان في عام (١٨٦٠)، وحتى تاريخه، ما زالت مفيدة جداً لكونها ارتكزت على النصوص القرآنية، واستقرأت أوضاع المسيحيين وحقوقهم في التاريخ العربي الحديث.

اهتم غرغس في الأصول المورفولوجية للغة العربية، التي كانت عنوان أطروحة الدكتوراه التي دافع عنها في العام (١٨٧٣). بدأ حياته العملية كمساعد لاستاذه نافرتسكي في عام (١٨٧١)؛ وبعد وفاة استاذه كان البروفسور الوحيد في كلية اللغات الشرقية، حتى عام (١٨٧٢)، إلى أن جاء **ف. رازين** الذي ألّف معه الكتاب المدرسي حول «الأدب واللغة العربيين». وبين عامي (١٨٧٥ - ١٨٧٦)، اكتسب هذا الكتاب شهرة واسعة ليس في روسيا وحسب، وإنما في أوساط المستعربين المستشرقين في كل مكان. كما أن كتابه حول «تاريخ الأدب العربي» - (١٨٧٣)، وترجمته («القوانين الاسلامية» في العام ١٨٨٢)، كانا يعتبران المرجعين الرئيسيين في تاريخ الاستعراب الروسي، حتى الثلث الأول من القرن العشرين. اشتهر غرغس في تعريفه القارىء الروسي على كتاب «الأغاني» للأصفهاني، الذي نُشر في بحث مطوّل بعد وفاته في العام (١٩٠٠)، وكان قد قام بتحقيق وكتابة المقدمة للمخطوطة العربية التي تناولت تاريخ «أبو حنفي الدينابري»، والتي نشرت في العام (١٨٨٧)؛ شارك في مؤتمرات عالمية عديدة حول الاستشراق الروسي. مما لا شك فيه، أن طاقاته الكبيرة ومنهجه العلمي الرصين الذي تميَّز به دون سواه من معاصريه، هي التي أكسبته الشهرة الواسعة، ولو لم توافيه المنية في (٢٨ شباط/فبراير ١٨٨٧) إثر مرض عضال، لكان قد أعطى لعلم الاستشراق وللثقافة الروسية والعربية معاً الكثير الكثير[٦٨].

عاصر غرغس الباحث غورلياند (١٨٤٣ - ١٨٩٠) الذي أحرز ميدالية ذهبية عن دراسته حول «تأثير الفلسفة الاسلامية على فلسفة ابن ميمون» في العام (١٨٦٣). هذا العمل يرتدي أهمية خاصة، لأنه يكاد يكون الدراسة الفلسفية الوحيدة عن تأثير الفلسفة العربية الاسلامية على موسى بن ميمون، الذي يعتبر أحد أهم الرموز الذين نقلوا تراثنا الفلسفي إلى أوروبا. فما زال هذا العمل يحتفظ بقيمته الفكرية المعاصرة، ذلك لأنه، حتى الآن، تتوفَّر في أدبياتنا دراسات جادة عن هذا الموضوع، الذي أثار ويثير جدلاً حول علاقة موسى بن ميمون بالفلسفة العربية - الاسلامية، وحول «إخلاصه» في ترجمة ونقل النتاج الفلسفي العربي إلى اسبانيا ومنها الى أوروبا.

عندما توقّف قلب المستشرق غرغس وعقله عن النشاط والابداع، برز نجم آخر لم يقل أهمية عن سلفه، بل إنه أضاف أشياء جديدة إلى عمارة الاستشراق والاستعراب الروسية. لم يكن وهجها الابداعي منحصراً في إطار

روسيا، بل إنها امتدت لكل حركة الاستشراق العالمية. من هو هذا النجم؟

إنه **رازين** (١٨٤٩ - ١٩٠٨)، روسي الجنسية من أصل فرنسي، والدته من جيورجيا، عندما التحق بالكلية الشرقية وهو في السابعة عشرة من عمره (١٨٦٦)، كان المستشرق غرغس يدرس في الكلية. مع أن الفرق بين عمر الاثنين أربعة عشر عاماً، سرعان ما لحق بأستاذه بعد ست سنوات، وأصبح مساعداً له في الكلية، وتعاون معه في تنظيم العمل وفي تأليف الدراسات والكتب. هذا، ناهيك عن الدراسات الجديدة التي أعدها أيام شبابه عن الأدب الفرنسي. كان من الاختصاصيين البارزين باللغتين العربية والفارسية، كما أنه كان يجيد اللغة العبرية، تلقاها على يدي المستشرق **هوالسون**. تعرّف على مدرسة الاستشراق الغربية من خلال مكوثه لمدة سنة في لايبزغ (١٨٧٠ - ١٨٧١)، تعرف هناك على المستشرق فليشرغ، (١٨٠١ - ١٨٨٨). وتأثر رازين بشكل ملحوظ بأعمال المستشرق **ألواردت** (١٨٢٨ - ١٩٠٩)، الذي كان على اطلاع واسع بالشعر العربي وبالآداب الشرقية عامة. ومن خلال رحلاته إلى الخارج بنى علاقات وطيدة مع أهم المستشرقين في عصره، منهم: المجري **غولدتسهير** (١٨٥٠ - ١٩٢١)، والايطالي **كويدي** (١٨٤٤ - ١٩٣٥)، والفرنسي **شيفر** (١٨٢٠ - ١٨٩٨)، والانكليزي **براون** (١٨٦٢ - ١٩٢٦)، والهولندیان م. ي. دي غويه (١٨٣٦ - ١٩٠٩)، ومزت هواتسم (١٨٥١ - ١٩٤٣)[٦٩].

أولى رازين اهتماماً كبيراً للتحقيق والتدقيق بالمخطوطات الشرقية، وللحفاظ عليها، ووضعها في أماكن لا تؤثر عليها تقلّبات الطقس. وهذه المسألة كانت هامة جداً، لأنه في ذلك التاريخ لم تكن المواد الكماوية متوفرة، ولا الأماكن الجيِّدة ولا التنظيم الحديث للأرشفة، مما أدى إلى إتلاف العديد من المخطوطات القديمة القيِّمة.

أنجز رازين تحقيق وتدقيق عدد من المخطوطات الهامة، أبرزها مخطوطة الجغرافي العربي «البكري»، ونشرها مرتين. الأولى، في العام (١٨٧٨)، والثانية، في العام (١٩٠٣). ومخطوطة الرحالة العربي الكبير «ابن فضلان» (١٩٠٤)[٧٠]. درس العلاقات البيزنطية - العربية، وكتب عن هذه القضية دراسة تناولت حياة ونشاط المؤرخ العربي المسيحي يحيى الانطاكي (١٨٨٣). في محاضراته أمام طلابه، كان يدعو لأن يكون للاستعراب الروسي دور أبعد من أن يكون متعلّقاً بالعلاقات الروسية - العربية، وبتاريخها الثقافي والعلمي والاقتصادي، كان يدعو لأن تتوسع دائرة اختصاص الاستعراب لتتناول دراسة تحليل القضايا الدولية، وللمشاركة في صنع القرارات التاريخية المصيرية للشعوب، وللتأكيد على دور الحضارة العربية والروسية في صنع الحضارة الانسانية. وكما هو ملاحظ، فطموحاته كانت أكبر بكثير من الامكانيات المتوفرة للاستشراق الروسي. إلاّ أنه بصرف النظر عن ذلك، استطاع أن يساهم شخصياً - من خلال أعماله العلمية - في إغناء الثقافة

العالمية بأسرها، فقد لعب دوراً بارزاً في المؤتمر العالمي الثالث للمستشرقين، الذي عقد في بطرسبورغ في العام (١٨٧٦)؛ وانتخب فيه مسؤولاً عن العلاقات الخارجية، ومساعداً للأمين العام لاتحاد المستشرقين العالميين. نُشر له كتاب حول هذا المؤتمر في العام (١٨٧٩)، تناول فيه بالتحليل والنقد وضع حركة الاستشراق الدولية في ذلك الوقت[٧١].

بعد فشل المحاولة في الثمانينات لإقامة مركز للاستشراق، يدخل في إطار الأقسام المستقلة والمختصة في أكاديمية العلوم، عمل عميداً للكلية الشرقية للغات لمدة عشر سنوات (١٨٩٣ - ١٩٠٣)، وترأس القسم الشرقي للمخطوطات، الذي سرعان ما تحول إلى جمعية شرقية تركت آثارها على مسيرة الاستشراق الروسي عموماً. منذ العام (١٨٨٦)، أصبحت مجلة «زابيسكا» تغطي بشكل دوري أخبار المستشرقين؛ وكانت تطبع بلغات أجنبية. منذ ذلك الحين، بدأ العقل الاستشراقي الغربي يتوجَّه نحو روسيا للتعرُّف عن كثب على أعمال المستشرقين الروس.

تمكن رازين - من خلال نشاطه في كلية اللغات الشرقية، والقسم المدرسي التابع لوزارة الخارجية، ومجلة «زابيسكا»، والجمعية الشرقية - أن يجمع حوله خيرة العاملين في ميدان الاستشراق. ولعل أهمهم: الاختصاصي باللغات الشرقية ن. ي. **مار** (١٨٦٤ - ١٩٣٤)، والناقد الادبي المشهور والاختصاصي بتاريخ الهند **أولدنبرغ** (١٨٦٩ - ١٩٣٤)، والاختصاصي المعروف في تاريخ الاسلام والشرق الاسلامي **برتولد** (١٨٦٩ - ١٩٣٠)[٧٢]. إن هؤلاء لعبوا دوراً لا يستهان به في مسيرة الاستشراق الروسية والسوفياتية، وترك كلٌّ منهم اعمالاً خلَّدت اسمه في تاريخ الثقافة الروسية والعالمية.

في مقدمة هؤلاء: **مار**، الذي كان يجيد العربية، وكان على إلمام واسع بالمخطوطات العربية الموجودة في بطرسبورغ، وبعض المدن الآسيوية الروسية، كما أنه تعمَّق في دراسة الأدب العربي حيث ترك حول هذا الموضوع مؤلفات عديدة، أشهرها: «مار وانطباعاته عن الأدب العربي»، و«مار والأدب العربي الجديد»[٧٣].

أما برتولد، المستشرق الشهير، الذي درس التاريخ العربي والاسلامي ونشر الدراسات المكتوبة بأسلوب ميسر ليفهمها القارىء غير المتخصِّص، فلقد كان خير ما يطمح إليه أن يعطي للثقافة العربية حقَّها وحجمها الطبيعيين، وأن يعرِّف أوسع فئة من الناس عليها. ولقد قدم أبحاثاً أخرى حول تاريخ آسيا الوسطى، وحول الاسلام بالذات، تلك الأبحاث تعتبر إحدى أهم الأبحاث العالمية حول هذه المواضيع، وقد كُتب معظمها في الفترة السوفياتية[٧٣ مكرر]. وهكذا الأمر بالنسبة لأولدنبرغ، الذي كان يراوده نفس الطموح الموجود عند برتولد، بيد أن دراساته لم ترقَ إلى مستوى كتابات برتولد، واهمها «تأثير الحضارة العربية على بلاد الأندلس» - (١٩١٠).

تحت تأثير رازين، تمكَّن العالم الروسي الاختصاصي بالشؤون الاسبانية **بيتروف** (١٨٧٢ - ١٩٢٥)، أن يدرس اللغة العربية وهو في سن متقدِّم. ألقى سلسلة من المحاضرات عن « الأدب العربي في اسبانيا » وكتب عدة مقالات عن التأثير والتأثر المتبادل بين الأدب العربي والاسباني، كما أنه نشر كتاباً في العام (١٩١٤)، عن « ابن حزم »[٧٤].

إن كل هذه الأمثلة التي أوردنا، إن دلَّت على شيء إنما تدل على أن مدرسة الاستشراق الروسية تطوَّرت عمودياً وأفقياً. إن أعمال غرغس ورازين وسنكوفسكي وفرين وغيرهم، تعمقت في دراسة التراث العربي والمخطوطات العربية. كما أن إيجاد كوادر علمية مختصة بدراسات الشرق في مناطق متنوعة، أدَّى إلى انتشار مدرسة الاستشراق وإلى فتح فروع لها في أكثر من قومية روسية. ونحن،، وإن توقَّفنا مطوَّلاً عند مدرسة بطرسبورغ في الاستشراق والاستعراب، ذلك لكونها كانت تحتل في الواقع مركز كل النشاطات العلمية في كافة الميادين، بما فيها علم الاستشراق. غير أن هذا لا يعني إطلاقاً، بأنه لم يكن للفروع الأخرى للاستشراق الروسي أية مساهمة في إغناء المدرسة الروسية وفي كشف جوانب متعدِّدة من التاريخ الادبي والثقافي العربي. فأعمال بعضهم وصلت إلى مستوى من الرصانة والبحث العلمي الموضوعي الجاد، جعلها تحتل مكانة مرموقة في التاريخ الثقافي للشعب السوفياتي.



بعد افتتاح الكلية الشرقية للغات، التي كانت بمثابة التحوُّل النوعي في مسيرة الاستشراق الروسي في بطرسبورغ، وروسيا عامة، شهدت بقية المدن الروسية تقدُّماً ملحوظاً في هذه المسيرة؛ وفي كل مدينة، كانت حركة الاستشراق تسير بخطى مميَّزة تقريباً، عما هي عليه في المدن الأخرى، وهذا ما سنحاول استعراضه وتقويمه في كل من موسكو وقازان، حيث كانتا المدينتين الرئيسيتين بعد بطرسبورغ. أعطتا أعمالاً ومستشرقين كانت لهم أهمية كبرى في إغناء الاستعراب والثقافة الروسية بأسرها.

ركدت حركة الاستعراب في موسكو فترة من الزمن، بعد ابتعاد أهم رموزها **بلديريف** عن الدراسات الاستشراقية، بيد أن تراث بلديريف، منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن التاسع عشر، لم يذهب سدى. فلقد ساهم بتكوين تقاليد خاصة للاستشراق الروسي تابعها من بعده تلامذته.

في الواقع، لم يُبدأ بتعليم اللغة العربية في قسم اللغات الشرقية التابع لجامعة موسكو إلاَّ في العام (١٨٥٢)، على يد تلميذ بلديريف المستشرق الاختصاصي في الهند **بيتروف** (١٨٦٤ - ١٨٧٥)، لقد بدأ هذا المستشرق بتدريس العربية، وهو شاب، وتميَّز بموهبته اللغوية بسعة اطلاعه بالثقافة الهندية والعربية[٧٥]. بيد أن الوسط

المحيط به من الانتلجنسيا الموسكوفية لم يساعده، كما هو الأمر بالنسبة لاستاذه بلديريف، من متابعة تعمُّقه في دراسة التراث العربي وفي تعليم العربية. لذا، فإنه على ما يبدو لم يترك اعمالاً مكتوبة كثيرة في هذا القبيل؛ إلاَّ أن علاقة الود والاحترام المتبادل، التي كانت تربطه بالمستشرق بيتروف وبالناقد الروسي الكبير بلينسكي، أثمرت عن أعمال مشتركة للاثنين تمثّلت بترجمة العديد من الروايات الاوروبية الغربية إلى الروسية. لقد ساهم بيتروف في توجيه الكتَّاب والباحثين لدراسة قضايا الشرق والحضارات العريقة فيه. هذا، ومن خلال صداقاته الواسعة مع كبار الكتَّاب الروس في موسكو وقازان وبطرسبورغ، تمكَّن من إقناع العديد من الروائيين والبحَّاثة في اختيار مواضيع تتعلّق بشخصية الشرق وخصائص تركيز ثقافته. ساهم في كتابة مقالة علمية خاصة عن الثقافتين العربية والهندية، في الكتاب الذي صدر تكريساً للذكرى المئوية لتأسيس جامعة موسكو في عام (١٨٥٥)، وحمل العنوان التالي: «مواد حول تاريخ الأبجديات الشرقية والإغريقية والرومانية والسلافية». واشتهر أيضاً بمحاضراته المطوَّلة، التي ألقاها في جامعة موسكو في العام (١٨٦٢) حول اللغة والأدب العربيين[٧٦].

في أواخر الستينات توقَّف قسم اللغات الشرقية عن العمل لفترة من الزمن، غير أن الاهتمام بالتراث العربي لم يتوقف؛ ففي هذه الفترة، برزت محاولات جادة حول هذا الموضوع تمثَّلت بالدراسات النقدية وبالترجمات. لعلَّ أبرزها، الدراسة المفصَّلة والمعمَّقة للكاتب الروسي **كازادييف**، نشرها في أربعة مجلدات عام (١٨٧٧)، تحت عنوان: «ألف ليلة وليلة ـ أساطير عربية محورة باللغة الشعرية الروسية» لـ ف. أ. **كازادييف**[٧٧].

في عام (١٨٧٢)، تم افتتاح قسم «الدروس الخاصة» التابع لمعهد لازارسكي للغات الشرقية. وضع هذا القسم في أولى مهامه تحضير كوادر خاصة للعمل في بلدان الشرق. وظل يلعب الدور الأساسي ـ مع غياب الأقسام الأخرى المختصة باللغات الشرقية عن العمل ـ لمدة خمسة عشر عاماً، إلى أن تأسست «اللجنة الشرقية» التابعة لمعهد الارشيف الموسكوفي في العام (١٨٨٧)[٧٨]. لم تشهد هذه الفترة أيَّ نشاط للمستشرقين والمستعربين الروس، ولكن وجود عالم عربي من دمشق تمكَّن من سد الثغرة ومن إحداث ضجة ثقافية وسط المستشرقين الموسكوفيين؛ هذا العالم هو غ. أ. **مرقص** (١٨٤٦ ـ ١٩١١)، الذي أصبح ألمع البروفسيرية في معهد لازارسكي. وعلى ما يبدو، فقد أنهى دراسته العليا في الكلية الشرقية للغات في بطرسبورغ. وقد صادق هناك رازين، أعطى عصارة وعيه وخبرته اللغوية وثقافته العربية لطلاَّبه ومعاصريه من المستعربين الروس: تمكَّن، على النقيض من سلفه شيخ طنطاوي، من كتابة مجموعة من الدراسات الفكرية والسياسية واللغوية رفعت مكانته إلى مستوى كبار رجالات العلم الاستشراقي الروسي. أبرز دراساته: «حول وضع المسيحيين في الشرق» ـ (١٨٧٧)، في هذه الدراسة ركّز على وضع المسيحيين الثقافي والسياسي والديني ودعا الكنيسة الارثوذكسية

في سورية والمشرق أن تتحرر من سلطة الكنيسة اليونانية . وحول هذا الموضوع كتب أيضاً : « رسل السلام في الشرق » ـ (١٨٨١) ، وترجم إلى الروسية بين أعوام (١٨٨٢ ـ ١٨٨٥) « معلقة أمرىء القيس »! وفي عام (١٩٠٠) ، كتب دراسة تاريخية لغوية عن « فن الخطابة عند الخليفة علي » ، كذلك كتب في العام (١٨٨٧) دراسة قيِّمة عن الأدب العربي الجديد ، نشرها في المجلة الموسكوفية « الشرق القديم » . كما شارك في المؤتمر العالمي الثالث للمستشرقين في بطرسبورغ ، وألقى محاضرة تحت العنوان التالي : « تأملات حول الحالة المعاصرة للتعليم الشعبي في سورية » . كان من أشد المتحمّسين لحقوق المسيحيين في الشرق . هاجم في مقالاته ، التي نشرت في المجلات الروسية بين أعوام (١٨٨٠ ـ ١٨٩٢) ، محاولة الكنيسة الاغريقية والروسية في الهيمنة على المسيحيين العرب ، مما أدّى بكبار رجالات الكنيسة الروسية أن يمنعوا مقالاته من النشر . وكان قد ترجم المخطوطة التي غطت الرحلة التي قام بها المؤرخ والرحالة العربي **مكاريوس الحلبي** إلى موسكو ، في عهد الأمير الكسي ميخالونيتش : بدأ في ترجمتها عام (١٨٩٦) وانتهى منها في العام (١٩٠٠) ، نُشرت في خمسة مجلدات وحوالى الألف صفحة[٧٩] .

كان مرقص يطمح لكتابة دراسات عن مصادر اللهجة السورية وعن الأدب العربي المعاصر ، إلاَّ أن المرض لم يرحمه ، فاضطر للرجوع إلى وطنه سورية ، حيث توفي في ضواحي دمشق في العام (١٩١١) .

إلى ذلك ، فقد ساعد مرقص في تدريس اللغة العربية ، منذ عام (١٨٧٣) ، مواطنه اللبناني السوري ـ الذي ولد في دمشق وترعرع في بيروت منفتحاً ومتأثراً بالثقافة الغربية الأوروبية ـ م . عطايا (١٨٥٢ ـ ١٩٢٤) ، قضى هذا الأخير معظم حياته مدرِّساً في معهد لازارسكي ، وترك بعض الأعمال العلمية ، تناول معظمها قضايا لغوية بحتة ، أهمها : « إرشادات عملية لتعليم اللغة العربية » . لقي هذا الكتاب انتشاراً واسعاً في قازان عام (١٨٨٤) ، وأعيد طبعه في موسكو عام (١٩٠٠ و١٩١٠) ؛ وفي العام (١٩٢٣) ، نشر كتاباً آخر تناول : « إرشادات عملية حول لغة المحادثة ـ الشعبية العربية » . وفي العام (١٩١٣) ، أعد « القاموس العربي ـ الروسي » ، الذي ، وإن كان ضعيفاً من الناحية المنهجية ، إلاَّ أنه كان من القواميس القليلة المفيدة بالنسبة لعصره[٨٠] .

في قسم اللغة الفارسية التابع لمعهد لازارسكي ، برز المستشرق **كورش** (١٨٤٣ ـ ١٩١٥) . كان يتقن اللغتين الفارسية والعربية بشكل جيِّد ؛ وتميَّز عن معاصريه من المستشرقين في محاولته توسيع استعمال اللغة العربية في الميدان الثقافي والفني . إذ قدّم عروضاً مسرحية في موسكو تضمَّنت مسرحيات غنائية ، منها : « أشعار مرسلة من دمشق » ، عرضها في موسكو عام (١٨٨٢) ؛ والمسرحية الغنائية « معلقات امرىء القيس » ـ (١٨٨٥) . كما أنه كان يهتم بتاريخ اللغتين العربية والفارسية ؛ وفي عام (١٩٠٨) ، كتب دراسة مطولة عن « التنوع ونقاط

التقاطع بين الأشعار العربيةوالفارسية»[٨١]. كما أن تلك الفترة أبدعت مخيلة الموسيقار الروسي **كورساكوف** سيمفونية «شهرزاد»، التي اكتسبت فيما بعد شهرة عالمية.

لم تنتعش مسيرة الاستشراق في موسكو إلاَّ في نهاية القرن التاسع عشر، على يد المستشرق والمستعرب **كرايمسكي** (١٨٧١ - ١٩٤١)، الذي بدأ نشاطه العلمي في العام (١٨٩٨). دخل كرايمسكي **معهد** لازارسكي في العام (١٨٨٩)، وتخرَّج منه في الـ (١٨٩٢). وبعدها، التحق بكلية الآداب في جامعة موسكو، حيث مكث فيها (٤) سنوات. بين أعوام (١٨٩٦ - ١٨٩٨)، كان يفتش في مكتبات سورية عن الكتب المتنوِّعة والمخطوطات العربية. ومن ثم رجع إلى بلاده، حيث أظهر موهبة كبرى في تعلم اللغات الشرقية الثلاث: العربية والفارسية والتركية. واشتهر في الوقت نفسه - أيام شبابه - كشاعر وأديب أوكراني، حيث ولد وترعرع هناك. في العام (١٩٠٠)، أسَّس مكتبة كبرى في جامعة موسكو، كانت في معظمها على علاقة بتاريخ الاسلام. كتب عام (١٩٠١) دراسة تاريخية لغوية عن «اللغات السامية». وفي الفترة نفسها، أغنى المكتبة بمخطوطات وكتابات متنوعة عن تاريخ العرب. في العام (١٩٠٦)، أضاف للمكتبة كتباً جديدة عن تاريخ الأدب العربي. كانت هذه المكتبة محط أنظار كل المهتمين في معرفة حضارات الشرق[٨٢]: فالكاتب الروسي الكبير ليف **تولستوي**، كان يزورها من وقت لآخر؛ وفيها أطلع على مضمون القرآن، وعلى الرواية العربية المشهورة «ألف ليلة وليلة»، وعلى الكتابات النقدية. ساعده في ذلك صديقه المستشرق والأديب والناقد **كرايمسكي**. إن متانة المنهج العلمي لكرايمسكي، وسعة معرفته بالثقافة العربية، ومحاضراته القيِّمة حول الحضارة العربية الاسلامية في معهد لازارسكي، أكسبته احترام وتقدير تلامذته والأوساط العلمية الموسكوفية، حيث زرع في هذه الأوساط الاهتمام بتراث شعوب الشرق، وذلك من خلال مقالاته المنشورة وغير المنشورة، التي كان يرسلها بشكل منتظم إلى كافة الهيئات والمعاهد والكليات العلمية في موسكو. ولقد جمع في العام (١٩٧١) المستشرق **خاليدوف** كتاباته عن تاريخ الآداب والثقافة العربية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، والتي تعتبر عن حق دراسة موسوعية هامة جداً عن تلك المرحلة. في العام (١٩٠٦)، نشر كتابه الذي حمل عنوان «قصص بيروتية»، كما أنه أبرز في تلك الفترة جيلاً من المستشرقين، كان لهم أثراً ملحوظاً على تطوُّر مسيرة الاستشراق في موسكو، لعل أهمهم: س. أ. **أومانتا**، الذي كتب في العام (١٨٩٠) دراسة فلسفية وتأملات حول تطور الافكار الدينية والفلسفية في الاسلام. وف. ك. **تونوفسكي**، الذي كتب في العام (١٩١٤) عن «انتفاضة مصدق في عهد الساسانيين». وترجم في العام (١٨٨٩)، وبالتعاون مع أستاذه العربي **عطايا**، كتاب «ألف ليلة وليلة»[٨٣].

عمل كرايمسكي دون توقف مع تلامذته حتى العام (١٩١٨)؛ وكان لمعظم تلامذته دور كبير في دفع

عجلة الاستعراب خطوات كبيرة إلى الأمام، بعد قيام ثورة أوكتوبر، وهذا ما سنتناوله في الدراسات القادمة.

أمّا في قازان، فلم تتقدَّم حركة الاستعراب بعد أن رحل عنها العالم الكبير فرين، إذ ظهرت بعده أسماء كثيرة لم تترك أيّ أثرٍ ملحوظ في تاريخ الاستعراب؛ وكادت هذه الحركة تنهض من ركودها عندما عمل بها المستشرق الكبير **كاظم بيك** في العام (١٨٢٦)، إلاّ أنه لم يستمر في جامعة قازان، بعد تركه اياها مختاراً بطرسبورغ.

فقط في الاربعينات من القرن الماضي، بدأت حركة الاستعراب بالتحرُّك، وذلك نتيجة نشاط عدد من المستعربين، أبرزهم: **غاتفيلد** (١٨١٣ - ١٨٩٧)، الذي ربطته علاقة صداقة وطيدة مع الطنطاوي. ففي عام (١٨٤٩) ترأس قسم اللغات الشرقية في جامعة قازان، وكتب فيها مجموعة من الدراسات العلمية، منها: «مشروع قاموس عربي روسي عن القرآن» - (١٨٦١)، وترجم «المعلقات السبع وأشعار عمر بن الخيام» - (١٨٦٣)؛ وأعد عملاً هاماً - استفادت منه، ولمدة طويلة، جامعة قازان - عن «المخطوطات العربية». أدخل في تلك الفترة المطبعة العربية إلى قازان، وأسس مكتبة كبرى ضمَّت مجموعة لا بأس بها من الكتب والمخطوطات العربية، وكتابات عن «القانون الاسلامي» الذي ساهم هو نفسه في التعليق عليه[٨٤].

بعد غاتفيلد، حاول **ألمينسكي** أن يعطي كل ما يملك من مواهب لغوية وعلمية لجامعة قازان، إلاّ أنه لم ينجح في ذلك، فهو على الرغم من إلمامه الواسع والعميق باللغة العربية وبالاسلام، لم يُترك له المجال للعمل بحرية في هذا الموضوع. لقد درس في الأزهر على يد الاستاذ **ابراهيم الدسوقي**، حيث حفظ القرآن عن ظهر قلب، وقطع سيناء متجهاً إلى فلسطين وسورية ولبنان، وتعرَّف على شعوب هذه البلدان وعاداتها وتقاليدها وديانتها. زار تركيا أيضاً، وكوّن من جرّاء ذلك حصيلة هامة من المعرفة اللغوية والدينية، قلّما وصل إليها مستشرق في عصره. غير أن إدارة الجامعة كانت توجِّهه دائماً لتدريس تاريخ الفلسفة والأديان. بكلمة، لم تستفد الجامعة من طاقاته الغنية والمتنوعة، فاضطر بعد ذلك مرغماً إلى ترك الجامعة، والتفرّغ لكتابة الأبحاث والمقالات العلمية عن الاسلام في تركيا والعالم العربي، لم يبق منها إلا كتابه الذي نشره في قازان عام (١٨٥٤) عن «ابن الأثير»[٨٥].

في العام (١٨٥٨)، عندما ترك المينسكي الاكاديمية، خلفه **سابلوكوف** (١٨٠٤ - ١٨٨٠)، الذي تعلم في الاكاديمية اللاهوتية الموسكوفية، من عام (١٨٢٦ - ١٨٣٠). درس بعدها العبرية والعربية، وتمكَّن في قازان أن يفرض نفسه كعالم اختصاصي في اللغات الشرقية، إلاّ أنه لم يتمكَّن، ولفترة طويلة، من التركيز على دراسة لغة من اللغات أو أدب من الآداب، فكانت الجامعة تدعوه تارة لتعليم التترية والإغريقية، وتارة أخرى

لتعليم العبرية والعربية . فكان يعطي كل اسبوعين ساعة فقط للغة العربية ؛ قدم استقالته بعدئذٍ ، وانصرف لترجمة القرآن عن العربية ؛ لم يتمكَّن من ترجمته حتى النهاية . في العام (١٨٩٧) ، كتب بحثاً « ملحق لترجمة القرآن » ؛ وفي العام (١٨٨٤) ، نشر كتاباً آخر حمل العنوان التالي : « شهادات عن القرآن والأسس القانونية للديانة المحمدية » تناول فيه رؤية المسلم لدينه وللحياة والمجتمع ، محلّلاً الخصائص الفكرية والميثولوجية للقرآن . مما لا شك فيه ، أن لسابلوكوف الدور الأساسي في دراسة الشرق والاسلام معاً . وبقي التراث الذي تركه مرجعاً أساسياً لكل الذين أتوا من بعده ، ودرسوا العربية وتاريخ الاسلام في قازان[٨٦] .

فيما بعد ، اشتهر تلميذه **مالوف** (١٨٣٥ - ١٩١٨) ، في تدريس اللغة العربية والتترية والعبرية ، وكان الموضوع الأساسي الذي تمحورت أبحاثه حوله ، هو الجدل والنقاش مع المفكرين المسلمين . دراساته المتنوِّعة حول الاسلام ، والتي نشرها في مجلات متعددة في قازان وبطرسبورغ ، تميَّزت بالتناول الموضوعي العلمي ، ممَّا أكسبها تقدير كبار رجالات الاستشراق الروسي في ذلك العصر . وفي معرض تعليق رازين على هذه الدراسات ، قال : « إن مالوف لؤلؤة صغيرة ، وكاتب جاد تُعلَّق عليه الآمال »[٨٧] . على ما يبدو أن أعماله لم يبق منها حتى الآن ، أيُّ شيء يذكر .

في عام (١٨٧٨) ، عمل البروفسور **ماشانوف** في تدريس اللغة العربية في جامعة قازان . كتب سلسلة مقالات عن الاسلام وحياة المسلمين ، في شبه الجزيرة العربية . وفي القاهرة ، وكانت هذه المقالات عبارة عن الانطباعات التي حملها بعد رحلته ، التي استغرقت سنتين في الحجاز والقاهرة ، كما أنه كتب عن وضع « المسيحيين الاوروبيين في المشرق العربي » - (١٨٨٩)[٨٨] .

بيد أن ألمع الشخصيات العلمية التي برزت في قازان في أواخر القرن التاسع عشر ، كان العالم العربي الفلسطيني **بندلي الجوزي** (١٨٧١ - ١٩٤٢) ، الذي تابع تعليمه العالي في جامعة قازان ، قبل أن يستقر نهائياً في روسيا . عاش متنقلاً بين قازان وبطرسبورغ وباكو وفلسطين . في العام (١٨٩٩) ، دافع عن أطروحة الدكتوراه التي كانت حول « تعاليم المعتزلة » . وفي العام (١٩١٤) ، كتب مقالة عن « القرآن » ، ثم نشرها في « الانسكلوباديا اللاهوتية الاورثوذكسية » . وفي العامين (١٨٩٨ - ١٨٩٩) ، أعد كتاباً مدرسياً للعرب ، عن كيفية « تعلم اللغة الروسية » . وفي العام (١٩٠٣) ، أعد « القاموس الروسي - العربي » ، الذي كان يعتبر عن حق - في عصره - من أفضل القواميس التي كانت موجودة . في العام (١٩١٦) ، حاضر **الجوزي** في جامعة قازان حول القوانين والحقوق الاسلامية . خاض ، في جامعة قازان وبين الأوساط العلمية الروسية ، نضالاً حقيقياً ضد العلماء المستشرقين المتأثرين بأنصار ما يسمى بـ « المركزية الاوروبية » ، وأكد على أهمية الحضارة العربية ، كما أنه كان من الأوائل الذين سلَّطوا الأضواء على النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية . بعد قيام ثورة

اكتوبر، عمل بروفسوراً في جامعة باكو، حيث عُيِّن فيها عميداً للغات الشرقية في الثلاثينات، وبقي في باكو إلى أن وافته المنية في العام (١٩٤٢).

نشطت حركة الأبحاث حول الاسلام في جامعة وأكاديمية قازان وابتداءً من العام (١٨٧٣)، أصدرت الأكاديمية مجلة جمعت حولها المستشرقين، الذين استقوا أفكارهم من البلاط القيصري ومن الحاخامات اليهودية ورجالات الكنيسة الروسية، حملت المجلة التسمية التالية «البشير المناهض للاسلام». كتب فيها مجموعة من الكتاب والمستشرقين، نشرت فيما بعد بعشرات المجلدات[٨٩].

لم يلعب المستعربون أيَّ دور ملحوظ في هذه المجلة، بل إن البعض منهم أخذ موقفاً عدائياً منها. ومنهم، على سبيل المثال، رازين، الذي قال: «بأن هذه المجلة تشكل اتجاهاً معادياً للعلم»[٩٠]. ولقد توقَّف رازين مطوَّلاً عند هذه المجلة، ومن يكتب فيها، وكان يرى أنه من الأفضل أن تحضَّر الأجواء الملائمة للشبيبة المسلمة في قازان، لدخول الجامعات، ولزرع الوعي العلمي في نفوسهم؛ فهذا، على حد رأيه، أفضل بكثير من الجدل البيزنطي مع الدوغمائيين من رجالات الدين الاسلامي. كما أنه، كان يرى أنه من الأفضل التعرُّف في البداية على نصوص القرآن والأدبيات الاسلامية، في لغتها الأصلية وعلى حقيقتها، ومن ثم يتم تناولها بالبحث والنقد والتحصيل. وهذا سيكون أفضل بكثير من الهجوم على الاسلام وعلى رجالات الدين الاسلامي، قبل أن يتم التعرُّف على حقيقة الاسلام وجوهره. كان يدعو في مقالاته - التي ناقش فيها كتاب البروفسور ماشانوف «خواطر حول حياة العرب في عصر محمد، كمدخل لدراسة الاسلام» (قازان ١٨٨٥) - إلى الرصانة والموضوعية العلمية في الأبحاث الاسلاماتية. وهو لم يعارض الباحثين الذي تناولوا برؤية علمية بعض الأسس الدوغمائية والميثولوجية للاسلام، إلاَّ أنه كان يقف بعنف ضد التيار المثالي الذي يقف على الأرضية نفسها التي يرتكز عليها التيار الاسلامي المتعصِّب والدوغمائي واللاعلمي في قازان وغيرها من المدن الروسية[٩١].

وهنا يجب أن نشير الى نقطة هامة أيضاً، تتعلّق بنشاط رازين الذي ساهم شخصياً وبشجاعة فائقة في التصدي للمحاولة التي بذلت من أجل جر حركة الاستشراق والاستعراب الروسية للتعلق بهذا التيار الروسي المعادي للعلم، وقد كسب رازين ولفترة طويلة تأييد معظم المستشرقين الذين عاصروه.



وهكذا، كما رأينا، فإن مدرسة الاستشراق الروسية خطت خطوات جدية إلى الامام. فلقد تم افتتاح عدد من المعاهد والأقسام لتعليم العربية ولدراسة الحضارة العربية الاسلامية، ولترجمة الأدبيات الفنية والفلسفية والدينية والكلاسيكية والمعاصرة، استطاع من خلالها القارىء الروسي أن يتعرف على كتابات جديدة من التراث

العربي، واغتنت المكاتب والمعاهد الروسية بكمية لا بأس بها من المخطوطات والتحف العربية ما زال السوفيات يفخرون بها حتى الآن.

في نهاية هذا البحث، الذي هو أقرب إلى الدراسة البيور بيبليوغرافية، هو أبعد ما يكون عن الدراسة الشاقة والدقيقة لمسيرة الاستشراق والاستعراب الروسية؛ فلقد توخينا في البداية تعريف قرّائنا وباحثينا على أهم المستعربين، وعلى أهم أعمالهم؛ وتوقفنا ـ وبشكل موجز ـ عند خصائص كل مرحلة من المراحل، آملين من وراء ذلك التعرُّف، وعن كثب، على مدرسة الاستشراق الروسية والسوفياتية التي أعطت للعالم دراسات قيمة جداً، والتي ساهمت في إغناء الثقافة الروسية والسوفياتية بتراثنا الأدبي والفلسفي والجمالي.

وأخيراً، ومن خلال هذا الاستعراض التاريخي البانورامي يمكننا أن نستنتج ما يلي:

أولاً: مما لا شك فيه، أن مدرسة الاستشراق والاستعراب الروسية كوّنت شخصيتها المستقلة بها، وأنتجت أعمالاً هامة جداً لعبت دوراً بارزاً في تطوُّر حركة الاستعراب الروسية والعالمية، جعلتها تكشف ـ وبشكل علمي موثَّق ـ عن جوانب مضيئة من تراثنا العربي، الذي أغنى بدوره الثقافة الروسية والسوفياتية المعاصرة. ولعل الفضل الأساسي في ذلك يعود إلى مستشرقين كبار، أمثال: فرين، غرغس، نافرتسكي، رازين، وغيرهم...

ثانياً: رافق الاتجاه الأول محاولات عدائية غير علمية تجاه التراث العربي ـ الاسلامي، وكان الاتجاه الثاني متأثراً بشكل ملحوظ بأنصار «المركزية الاوروبية». وكان لأعمال ونشاط هؤلاء المستشرقين والعلماء الآخرين تأثير سلبي على الرأي العام الروسي، ممّا خلق بدوره مجموعة من «الستريوتيبات» المشوَّهة عن العرب، وكان وراء هذه المحاولات في روسيا: البلاط القيصري، واللاهوت الروسي المتعصّب لأرثوذوكسيته، والانتلجنسيا اليهودية الروسية المتأثرة بالفكر الميثولوجي للحاخامات، وبالايديولوجيات الصهيونية الناشئة، التي بدأت منذ ذلك الوقت تغزو عقل بعض المستشرقين اليهود.

ثالثاً: ينبغي التعرُّف عن كثب على تاريخ الاستشراق الروسي والسوفياتي، وعلى موجودات أرشيف معاهد الاستشراق في كل من موسكو ولينينغراد وقازان وطشقند وألماتا ويرڤان وأشهاباد وبوخاري. هذه الموجودات التي تتمثَّل بمخطوطات عربية نادرة وثمينة جداً، تتناول أعمال كبار الفلاسفة والعلماء العرب في عصر النهضة العربية ـ الاسلامية، أمثال: الفارابي وابن رشد وابن سينا والرازي وغيرهم. لقد تم تحقيق وتدقيق قسم منها، والأخرى ما زالت محتفظة بالنسخة الأصلية. إن هذا الكنز العلمي الكبير ما زال مجهولاً بالنسبة لباحثينا وقرّائنا، فَمَن يبادر إلى جمعه؟ على الأقل المخطوطات التي جرى تحقيقها وتدقيقها، إنه سؤال يوجَّه إلى كل

الجامعات والمعاهد ومراكز البحث العلمي في العالم العربي، التي يهمُّها الاستفادة من تراثنا الفكري والعلمي العظيم.

الحواشي

(١) **ساخاروف**. أ. ن: «ديبلوماسية روسيا القديمة - مسائل في التاريخ»، عدد ٦ - موسكو ١٩٧٦، (ص ٦٦).

(٢) حول هذا الموضوع راجع: **باشوتاف**. ت: «السياسة الخارجية لروسيا القديمة»، تاريخ الاتحاد السوفياتي، عدد ٣ - موسكو ١٩٦٧، (ص ٧٥ - ٧٩).

(٣) **شمورلا**. ي: «الشرق والغرب في التاريخ الروسي» - يوربيف ١٨٩٥، (ص ٣ - ٤).

(٤) **الجاس سليمانوف**: آسيا وأنا - ألماتا ١٩٧٥، (ص ١٥٣).

(٥) **ليخاتشوف**. **د**: «شاعرية الأدب الروسي القديم» - موسكو ١٩٧٧، (ص ٢٠).

(٦) راجع، **فيخنر م**، **ف** تجارة الحكومة الروسية مع بلدان الشرق - موسكو ١٩٥٦، (ص ١٠ - ٤١).

(٧) راجع: **كراتشكوفسكي**، ي. أ: «حول تاريخ الاستعراب الروسي» - موسكو/لينينغراد ١٩٥٠، (ص ١٥ - ٢٠). **وكريمسكي** أ. ي: «تاريخ العرب والآداب العربية الدينية والدنيوية»، الجزء الثاني - موسكو ١٩١٢، (ص ٧٥ - ٨٣).

(٨) **كريمسكي** أ. ي، [المرجع نفسه].

(٩) راجع، **دانتسنغ** ب. م: «الشرق الأوسط في العلم والآداب الروسية» - موسكو ١٩٧٣، (ص ١٠ - ٤١).

(١٠) راجع، **كراتشكوفسكي**: «حول تاريخ الاستعراب الروسي» [مرجع سابق]، (ص ٢٠ - ٢١). **ودانتسنغ**، ب. م: من كتاب «خواطر حول تاريخ الاستشراق الروسي» - دار نشر العلم، موسكو ١٩٥٣، (ص ١٨٦ - ٢٢٠).

(١١) **دانتسنغ**، ب. م: من كتاب «خواطر حول تاريخ الاستشراق السوفياتي»، [مرجع سابق].

(١٢) **كراتشكوفسكي**، ي. أ: «حول تاريخ الاستعراب الروسي» [مرجع سابق] (ص ٣٥).

(١٣) راجع، **بريسلكوف** م. د: «خواطر حول التاريخ السياسي للكنيسة الروسية الكيفية، بين القرن العاشر والثاني عشر» - **بطرسبورغ** ١٩١٣، (ص ٢٤ - ٢٧).

(١٤) راجع، **كراتشكوفسكي** ي. أ: «حول تاريخ الاستعراب الروسي» [مرجع سابق] (ص ٣٠).

(١٥) المرجع نفسه، (ص ٢٥).

(١٦) المرجع نفسه، (ص ٢٧ - ٢٨).

(١٧) المرجع نفسه، (ص ٣٠).

(١٨) المرجع نفسه، (ص ٣١).

(١٩) راجع، **برتولد** ف. ف: «المؤلفات»، المجلد التاسع -موسكو١٩٧٧، (ص ٢٨).

(٢٠) **كراتشكوفسكي**: «تاريخ الاستعراب الروسي»، [مرجع سابق]، (ص ٣٥].

(٢١) **برتولد ف**. ف: «المؤلفات»، المجلد التاسع، [مرجع سابق]، (ص ٢٩).

(٢٢) **كراتشكوفسكي**: «تاريخ الاستعراب الروسي»، [مرجع سابق]، (ص ٣٨).

(٢٣) راجع، **دانتسنغ** ب. م: «حول تاريخ دراسة الشرق الاوسط في روسيا في النصف الاول من القرن الثامن عشر» من كتاب «من تاريخ الاستشراق الروسي» - موسكو ١٩٥٦، (ص ٣٩٥ - ٤١٢).

(٢٤) **كراتشكوفسكي**: [مرجع سابق]، (ص ٤٠).

(٢٥) حول هذا الموضوع، راجع: **دانتسنغ** ب. م: «حول تاريخ دراسة الشرق الاوسط في روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر» من كتاب «تاريخ الاستشراق الروسي» - موسكو ١٩٦٣، (ص ١٣٤ - ١٨٦).

(٢٦) المرجع نفسه.

(٢٧) المرجع نفسه.

(٢٨) المرجع نفسه.

(٢٩) حول هذا الموضوع، راجع: **كراتشكوفسكي**: «حول تاريخ الاستعراب الروسي»، [المرجع نفسه]. ودراسة العالم السوفياتي، **الخاسر ادجي س. أ**: «الكلمات المعرّبة في اللغة الروسية» - مجلة شعوب آسيا وافريقيا، عدد ١٩٧٣، (ص ١٥١ - ١٥٨).

(٣٠) **كراتشكوفسكي**: [المرجع نفسه]، (ص ٥٢).

(٣١) **برتولد. ف**: المجلد التاسع، [مرجع سابق]، (ص ٤٣).

(٣٢) المرجع نفسه، (ص ٤٩ - ٥٠).

(٣٣) المرجع نفسه، (ص ٥٠).

(٣٤) راجع، **كراتشكوفسكي**: «حول تاريخ الاستعراب الروسي»، [مرجع سابق]، (ص ٨٨ - ٨٩).

(٣٥) راجع: **كراتشكوفسكي**، المجلد الخامس، [مرجع سابق]، (ص ٦٨).

(٣٦) المرجع نفسه، (ص ٦٩).

(٣٧) المرجع نفسه(ص ٨١).

(٣٨) المرجع نفسه(ص ٨٢).

(٣٩) راجع: **دانتسنغ ب. م**: «حول دراسة الشرق الاوسط في روسيا، في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين» - موسكو ١٩٦٨، (ص ٥٠ - ٥١).

(٤٠) **كراتشكوفسكي. أ**: حول تاريخ الاستعراب الروسي، [مرجع سابق]، (ص ٨٦).

(٤١) **كراتشكوفسكي. أ**: «شيخ طنطاوي البروفسور في جامعة بطرسبورغ»، من مجلده الخامس؛ [مرجع سابق]، (ص ٢٦).

(٤٢) للمزيد من التفاصيل عن الشيخ طنطاوي، راجع: **كراتشكوفسكي**،[المرجع السابق]؛ (ص ٢٢٩ - ٢٩٩).

(٤٣) المرجع نفسه.

(٤٤) المرجع نفسه.

(٤٤) (مكرّر) **«الديكابرية»** حركة سياسية جمعت ممثلين عن طبقة النبلاء الروس المتنورين، المتأثرين بالثورة الفرنسية، قاموا بانتفاضة سياسية ضد السلطات القيصرية في العام (١٨٢٥)، لم تفلح محاولاتهم بالنجاح؛ فنفي بعضهم إلى سيبيريا. كان تورغنيف وبوشكين وغلينكا من أشد المتحمّسين لهذه الثورة، وهي تعتبر بمثابة المرحلة الاولى للثورة الروسية التي مرَّت بثلاث مراحل، والتي انتهت بالإطاحة بالنظام القيصري في العام (١٩١٧).

(٤٥) راجع، **دانتسنغ**: «حول دراسة الشرق الاوسط في روسيا»، [مرجع سابق]، (ص ١٠٢).

(٤٦) المرجع نفسه، (ص ١٠٧).

(٤٧) المرجع نفسه.

(٤٨) المرجع نفسه، (ص ١١٩).

(٤٩) راجع **برتولد. ف**: تاريخ دراسة الشرق في روسيا وأوروبا - المجلد التاسع، (ص ٣٩٨).

(٥٠) المرجع نفسه، (ص ٤٠١).

(٥١) **دانتسنغ**: «حول دراسة تاريخ الشرق الاوسط في روسيا»، [مرجع سابق]، (ص ١٢٣).

(٥٢) **كراتشكوفسكي**: «حول تاريخ الاستعراب الروسي»، [مرجع سابق]، (ص ١٢١).

(٥٣) المرجع نفسه.

(٥٤) راجع: **برتولد. ف**، المجلد التاسع، [مرجع سابق]، (ص ٦٧).

(٥٥) المرجع نفسه، (ص ٦٩) .
(٥٦) المرجع نفسه .
(٥٧) **دانتسنغ:** « حول دراسة الشرق الأوسط في روسيا »، [مرجع سابق]؛ (ص ١١٨) .
(٥٨) **كراتشكوفسكي:** « حول تاريخ الاستعراب الروسي »، [مرجع سابق]، (ص ١٣٠) .
(٥٩) المرجع نفسه .
(٦٠) المرجع نفسه، (ص ١٣٢) .
(٦١) المرجع نفسه .
(٦٢) **برتولد:** المجلد التاسع، [مرجع سابق]، (ص ٧٠) .
(٦٣) **دانتسنغ:** « حول دراسة الشرق الأوسط في روسيا »، [مرجع سابق]، (ص ١٢١) .
(٦٤) المرجع نفسه، (ص ١٢٢) .
(٦٥) **برتولد:** المجلد التاسع، [مرجع سابق]، (ص ٤٥٤) .
(٦٦) حول هذا الموضوع، راجع: **كراتشكوفسكي،** المجلد الخامس. [مرجع سابق] .
(٦٧) المرجع نفسه .
(٦٧) (مكرّر) بطرسبورغ هي التسمية العربية لمدينة **بيتر بورغ،** والتي يطلق عليها الآن تسمية **لينينغراد.**
(٦٨) **دانتسنغ:** « حول دراسة الشرق الأوسط في روسيا »، [مرجع سابق]، (ص ١٤٧) .
(٦٩) « حول كتابات البارون رازين ف. ب »، **لكراتشكوفسكي** - بيتربورغ ١٩١٨ .
(٧٠) **كراتشكوفسكي. أ:** ملحق حول، « أعمال رازين ومواد عنه » - لينينغراد ١٩٢٩ .
(٧١) المرجع نفسه .
(٧٢) **كراتشكوفسكي. أ:** المجلد الخامس، [مرجع سابق]؛ (ص ٤٤٥) .
(٧٣) المرجع نفسه .
(٧٣) (مكرّر) جمعت أكاديمية العلوم السوفياتية - قسم الدراسات الشرقية أهم أعماله في تسعة مجلدات، وكل مجلد يقع في حوالى (٦٥٠ صفحة)، باستثناء المجلد التاسع والأخير، الذي يقع بـ (٩٦٦ صفحة) . وتعتبر مؤلفاته بحق أهم وأنصف الكتابات الاوروبية حول الاسلام .
(٧٤) **كراتشكوفسكي:** المجلد الخامس، [مرجع سابق]، (ص ١٠٦) .
(٧٥) راجع: **دانتسنغ. ب. م:** الشرق الأوسط في العلم والآداب الروسية - موسكو ١٩٧٣، (ص ٣٤٣) .
(٧٦) المرجع نفسه .
(٧٧) المرجع نفسه، (ص ٣٤٦) .
(٧٨) راجع: **بازيان، أ** - معهد لازارسكي للغات الشرقية؛ موسكو ١٩٥٩ .
(٧٩) **كراتشكوفسكي. أ:** « حول تاريخ الاستعراب الروسي »، [مرجع سابق]، (ص ١٦٦) .
(٨٠) المرجع نفسه .
(٨١) المرجع نفسه .
(٨٢) راجع: المقدمة التي كتبها المستشرق **خاليدوف. أ،** عن اعمال كراتشكوفسكي، في كتاب « تاريخ الأدب العربي المعاصر » - موسكو ١٩٧٠ .
(٨٣) **كراتشكوفسكي. أ،** « حول تاريخ الاستعراب الروسي »، [مرجع سابق]، (ص ١٧٢) .
(٨٤) راجع: **دانتسنغ،** « الشرق الأوسط في العلم والآداب الروسية »، [مرجع سابق]؛ (ص ٣٦١) .
(٨٥) المرجع نفسه، (ص ٣٦٤) .
(٨٦) راجع: « الاسلام في تاريخ شعوب الشرق »، تأليف مجموعة من العلماء السوفيات - موسكو ١٩٨١؛ (ص ١٨٩ - ١٩٤) .

(٨٧) **كراتشكوفسكي . أ**، « حول تاريخ الاستعراب الروسي » [مرجع سابق]، (ص ١٧٧) .

(٨٨) المرجع نفسه .

(٨٩) عن هذه المجلة، وعن الدراسات الاسلامية في قازان وعموم روسيا، كرّس **بوتولد** عدة أعمال، جُمعت في المجلد السادس من مؤلفاته التسعة .

(٩٠) **بوتولد . ف**، المجلد التاسع، (ص ٥٩٣) .

(٩١) المرجع نفسه .

صـــدر عـــن



معهد الإنماء العربي

وعيُ الوعيْ
او
الحكم المسْبق والمسْألة التّربوّية

د . أنطوان ج . خوري